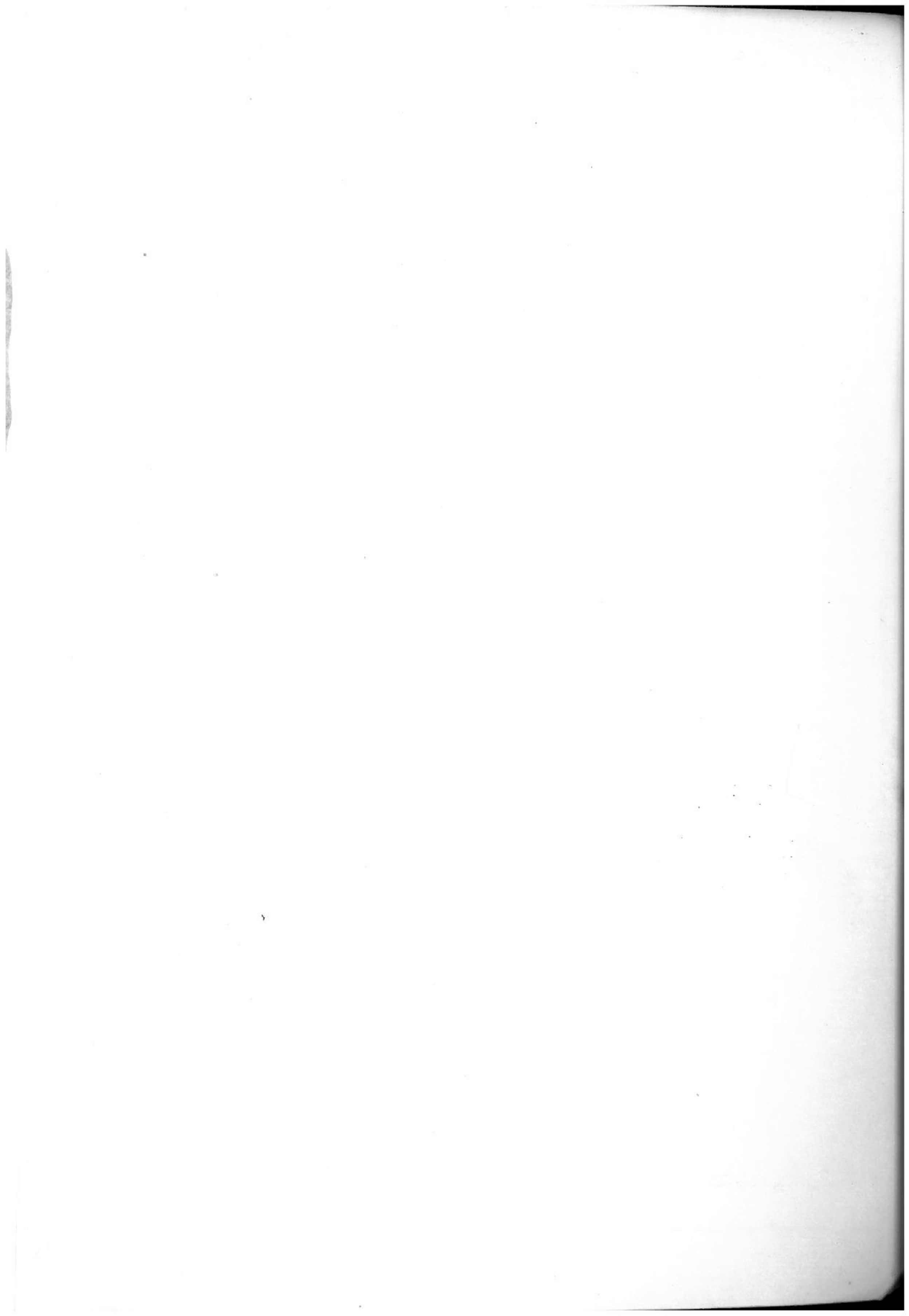


مركز دراسات الوحدة العربية

عالم الغد : العالم الثالث يتّهم

(مدخل الى الغديّة)

الدكتور محمد عزيز الحبابي







مركز دراسات الوحدة العربية

عالم الغد : العالم الثالث يتّهم

(مدخل الى الغديّة)

الدكتور محمد عزيز الحبابي

نقلته عن الفرنسية :

الدكتورة فاطمة الجامعي الحبابي

محمد صلاح بوشتلة

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

هذا الكتاب ترجمة عربية للأصل المنشور بالفرنسية بعنوان:

Le Monde de demain: Le Tiers-Monde accuse

(Casablanca, Maroc: Dar-El-Kitab; Sherbrooke, Canada: Ed. Naaman, 1980).

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» ـ شارع ليون ـ ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧ ـ ٨٦٩١٦٤ ـ برقياً: «مرعربي»
تلكس: ٢٣١١٤ مارابي

الطبعة الأولى

بيروت، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١



المحتويات

القسم الرابع
من أجل فلسفة غدويّة



تقديم

إذا كان الفيلسوف الحق هو الذي يتفاعل مع ظروف حياته، يتأمل المعطيات ويحاول أن يجد لها تفسيراً من تركيبات الماضي، فهو يحيا الحاضر، دون أن تكون للحظة التي يعيشها حضور ثابت، بمعنى أنه حضور في مضي وتوتر نحو المستقبل، وفي الآن نفسه. فيكون تفاعله، إذ ذاك، مع الزمن مختلفاً عن تفاعل الغير معه. فالفيلسوف يعي بعمق تداخل أنماط الزمان التي تقلّص الإنسان، والتي تجعل منه مجرد مستهلك للحياة، سالبةً إياه قدرة التفاعل مع مختلف الأبعاد التي تُكوِّن، عملياً، شخصه كإنسان وكفرد متميز عن سواه. ينتصب الفيلسوف ليقاوم هذا التقلص، ويخترق اللحظات في انسيابها الدائم المتوتر بين مضي واستقبال عبر حضور منفلت، فيحيا من خلال هذا التمازج وجوداً زائلاً وأبدياً، فهو في الآن نفسه: وجود الذات المفكرة العابرة، ووجود النوع البشري المستمر والمتجدد.

* * *

من هذا المنظار يمكن أن نصنف أعمال المفكر محمد عزيز الحبابي. فلقد جاءت أعماله، في الخمسينيات، رجع صدى الاستعمار الذي كانت تعاني منه الدول والشعوب المستعمَرة ويلات الحجر والقهر والاستلاب. كان هم مفكرنا في انطلاق تأمله الفلسفي، الثورة على المستعمِر، الذي أصر على تشييء المستعمَرين وتقليصهم إلى أدوات وحسب، يسخرها لمصالحه الخاصة. فكان أن سعَى الحبابي في بواكيره الفلسفية: **«من الكائن إلى الشخص»** و**«من الحريات إلى التحرر»** و**«من المنغلق إلى المنفتح»**، إلى تحليل أبعاد الكائن البشري وتأمل مراحل انتقاله من «الكينونة» إلى «التشخصن»، في سياق تفاعله مع معطيات البيئة، سلباً وإيجاباً. وبالفعل، فقد عكست هذه التآليف، عبر شخص مؤلفها، ظرفاً تاريخياً وتجربةً ومعايش، عاناها أولئك الأفراد الذين كانوا يرزحون تحت نير الاستعمار السياسي والاقتصادي في الدول المستعمَرة، وعاناها ويعانيها أيضاً أولئك المستلَبون أنّى وجدوا.

لقد واتت الفرصة المؤلف لأن يرى ويعاني التناقضات في باريس عاصمة النور، وهي

التي فر إليها لمتابعة دراسته العليا، حاملاً معه جروحه العميقة المادية والمعنوية[1]. لقد كان، وقتذاك، يمارس المقاومة الوطنية بكل الإمكانات، في خلايا مناضلة، وبتأمل عميق ومتطور وفق ما يستجدّ في ساحة العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، انطلاقاً من البيئة المجتمعية الضيقة إلى الصعيد الإنساني الواسع المعقد الذي تتحكم في تحركاته العلاقات الدولية وهيمنة الدول الكبرى على الصغرى، باختلاف أشكال الهيمنة وصيغها، وتنوّع مبرراتها.

***

فتحت القفزة النوعية التي حقّقت من خلالها الدول المستعمَرة ذاتها بالحصول على استقلالها، آفاقاً أكثر اتساعاً أمام جموح تأمل مفكرنا الذي لم يعرف توقفاً، وإنما كان يختمر باستمرار، ويزداد عمقاً في كتاباته الأدبية (الروائية والقصصية والشعرية)، وعبر دروسه في الجامعة والمحاضرات التي كان يلقيها في مختلف الأندية والجامعات، داخل المغرب وخارجه، وعبر حواراته مع مختلف أصحاب الاختصاصات، من فلاسفة وأدباء ورجال الدين، واقتصاديين ومنظّرين للمستقبل.

كانت غاية المؤلف، وما تزال، هي الخطو بالإنسان خطوات إيجابية، والتمرد على ايديولوجيات التمويه والزيف التي تعطّل في الإنسان إمكانات التشخصن والوجود المتميز، وكشف القناع عن أخطاء الأنظمة المعاصرة، ليبرالية واشتراكية، وبيان قصورها عن تحقيق سعادة الفرد داخل الجماعة، وسعادة الجماعة بتكتل مجهودات الأفراد، من أجل غد أفضل، بالنسبة إلى الجميع. هكذا انصبت تأمّلات الحبابي في مرحلة ما ـ بعد ـ الاستقلال على تحليل أوضاع الدول المستعمَرة قديماً، والدول المستعمِرة سابقاً، وتدارس العلاقات القائمة بينهما في ظل الاستراتيجية الاقتصادية الدولية ومطامح المعسكرَيْن المهيمنين. فجاء كتابه «**عالم الغد: العالم الثالث يتهم**» تشريحاً دقيقاً لهذه الأوضاع العالمية الجديدة، وصرخة من أعماق ثالثي أطلقها ضد أنواع الاستعمار الجديد، منذراً بما قد يلحق الإنسانية، كل الإنسانية، من أخطار إن لم يُتَدَارك الموقف، داعياً الدول الغربية، إلى أن تقف، بتجرد عن مصالحها الخاصة، إلى جانب الدول الثالثية، وتعمل جنباً إلى جنب، لإنقاذ الإنسانية من هيمنة التقانة وأخطار المزاحمات الاقتصادية، ولإعادة أنسنة كل النشاطات بسيادة القيم والأخلاق التي تعيد إلى الإنسان المكانة التي هو أهل لها، عسى أن يتحقق للجميع غد أفضل يضمن استمرارية النوع البشري بما يليق به من كرامةٍ وسمو.

---

(١) عانى المؤلف منذ خروجه من المراهقة في بداية الأربعينيات، السجن والضرب وأنواع التنكيل، مما أدى إلى حصول ورم في دماغه. فلم يكن له خيار سوى تحمّل عملية جراحية خطيرة لاستئصال ستة أسباع الغدة الرئيسية في الدماغ، دامت ما يربو على سبع ساعات، وذلك في العام ١٩٥٥، بمستشفى فوش في ضواحي باريس. ولم يكن ذلك نهاية المعاناة، بل ما زال يعاني مخلفات هذا الورم، كل وقت وحين، فلقد أجريت له عملية جراحية ثانية، في الدماغ وبالمستشفى نفسه في العام ١٩٧٩. وإلى اليوم لما يزل تحت مراقبة طبية حازمة، يخضع لعلاجات مستمرة ومستجدة ليفيد مما يستجد طبياً في هذا الميدان.

لقد جاءت صرخته قوية، تحرّض كل الثالثيين وكل المستلَبين في مجموع أثلاث العالم على أن يتضامنوا، انتصاراً للحق وتشبثاً بالمبادىء والقيم العليا.

* * *

يتوجه الكتاب أساساً إلى الآخر؛ ذلك القوي المهيمن. لذا حرره مؤلفه باللغة الفرنسية عساه يصل، مباشرة، إلى المتهم ويكون له وقع أكبر. ونظراً لما يزخر به الكتاب من حُفوز وآراء حميمة تواكب كل ما يستجد من الأحداث على الساحة العالمية وفي مختلف الميادين المجتمعية والاقتصادية والسياسية... فلم يمنع صدوره سنة ١٩٨٠[٢] أن نعمل اليوم على ترجمته إلى اللغة العربية، كما عمل آخرون على ترجمته إلى اللغة الانكليزية، راجين من وراء ذلك تمكين القارىء العربي من أن يضم صوته إلى صوت المؤلف فيجددا الصرخة ضد الظلم وكل أشكال الهيمنة الأمبريالية.

صحيح أن المعطيات المرقومة والإحصائيات التي يستشهد بها المؤلف تجاوزتها الأحداث لأنها تستجيب لوقائع السبعينيات وما نتج عنها من تطورات إثر أزمة النفط التي عرفها الغرب، ورجحان كفة الدول المصدرة له، وعلى رأسها الدول الثالثية العربية.

أقول، على الرغم من ذلك كله، فإن غاية الكتاب لم تكن رصد الأرقام لذاتها، وإنما اتخاذها مؤشراً على ما يعرفه الميزان الدولي من ذبذبات وتحرّكات ضد مصالح العالم الثالث، ودافعاً لأن يتجند الجميع، بكل قواه، بغية اتخاذ المواقف اللازمة لبناء مستقبل أفضل بالنسبة إلى الإنسانية جمعاء. إننا لم نحاول، في ترجمتنا هذه، التدخل في مضمون النص، ولا إعطاء ما تثبته آخر الإحصائيات في مختلف الميادين، الديمغرافية والاقتصادية والثقافية...، بل اعتبرنا تلك المعطيات شاهداً على فترة زمنية معينة، وستظل شهادتها قائمة ما دامت الأوضاع تسير، نسبياً، في المنحى نفسه. أضف إلى ذلك أن **الفلسفة الغدوية**، كما يريدها صاحبها، لا تقوم وحسب على الأرقام كالمستقبلية، وإنما تتميز عنها بالتحليل السوسيولوجي في علاقاته بالجيوسياسة وبالاقتصاد وبتفاعل ذلك كله مع القيم الأخلاقية التي يجب أن يبنى عليها الغد، ذاك إذا أرادت الإنسانية أن يكون لها غد أفضل.

إنه منعطف خصب في فكر فيلسوفنا، أسفر عن مذهب فلسفي جديد وطموح، تتجذّر أصوله في فلسفته **الشخصانية الواقعية** التي حملت في رحمها بذرة فلسفة غدوية إنسانية شاملة.

المترجمة

فاطمة الجامعي الحبابي

كهارة، ٣ حزيران /يونيو ١٩٨٩

---

(٢) Mohamed Aziz Lahbabi, *Le Monde de demain: Le Tiers-Monde accuse* (Casablanca, Maroc: Dar -El-Kitab; Sherbrooke, Canada: Ed. Naaman, 1980), pp. 17-24.

تصدير الطبعة الأولى (*)

منـذ سنوات لم ينشر محمـد عزيـز الحبابي، صـاحب الشخصانيـة الواقعيـة، أي مؤلف جديد، ما عدا إعـادة طبع كتبـه القديمـة. وكثيراً مـا تساءلنـا عن سبب صمت هذا الشـاهد «الـذي انكب عـلى مشكلة الإنسـان» كـما قـال عنـه دي شـامبـول[1]، علماً أن أعـمالـه تبشر بالعطاءات الكثيرة، خصوصاً منها تلك التي صدرت ما بين سنة ١٩٥٤[2] و ١٩٦٤[3].

كان الحبابي، في تلك الفترة، يخاطر بفكره بل بحياته كلها، ويعمل «على أن يُظهر بـبراعة دور الجامعة في نمو إنسية عربية وإسلامية متفتحة، جداً، على العالم المعاصر»[4].

وبـدا إذ ذاك، مناضـلاً من أجل الحـوار فيما بـين الثقافـات وفيما بـين الشعوب، إرادة إنسية جديدة. وبالفعل، فإن مؤلفنا، يثير قضايا خطيرة جداً، إذ يعتبر طرحه لها مخصباً، كما

(*) *Le Monde de demain: Le Tiers - Monde accuse* (Casablanca, Maroc: Dar-El- Kitab; Sherbrooke, Canada: Ed. Naaman, 1980).

(١) De Chambolle, *Mercure* (Bruxelles).

(٢) Mohamed Aziz Lahbabi: *De l'être à la personne: Essai de personnalisme réaliste*, bibliothèque de philosophie contemporaine, histoire de la philosophie générale (Paris: Presses universitaires de France, 1954), et *Libertés ou libération?* (Paris: Aubier-Montaigne, 1954).

ترجم الجزء الأول من الكتاب الأول إلى العربية، في: محمد عزيز الحبـابي، **من الكائن إلى الشخص: دراسـات في الشخصانية الواقعية**، مكتبة الدراسـات الفلسفية (القـاهرة: دار المعـارف، ١٩٦٨)، وترجم الكتـاب الثاني في: محمـد عزيـز الحبابي، **من الحـريات إلى التحـرر**، مكتبة الـدراسـات الفلسفيـة (القـاهـرة: دار المعـارف، ١٩٧٢).

(٣) Mohamed Aziz Lahbabi, *Le Personnalisme musulman*, initiation philosophique (Paris: Presses universitaires de France, 1964).

ترجم إلى العربية تحت عنوان: **الشخصانية الإسلامية**، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣).

(٤) انظر مقال بيار روندو (Pierre Rondot)، في: *Le Monde*, 29/11/1963.

أن تأمله مفيد، بلا ريب، لقضايا العالم الإسلامي، الذي هو في حاجة ماسة إلى تجديد التفكير في دينه، إن كان يريد الحفاظ عليه، في الداخل كما في الخارج[5].

وحسب مجلة **جون أفريك**، فإن أعمال الحبابي لا ينحصر اهتمامها في الإنسان العربي أو المسلم وحده، لكنها تتميز برؤيا شمولية؛ فلصوت العميد الحبابي، الفيلسوف والشاعر، صدى في عالم ثقافة بلا حدود، إنه صوت يندد بعالم يحرم الإنسان من الوسائل التي تمكّنه من تجاوز الآلات . . . والسيطرة عليها[6].

إن رسالة الحبابي التي دخلت، طيلة اثنتي عشرة سنة، في سبات (باستثناء كتبه الأدبية) تقطع الصمت فجأة، بفضل هذا الكتاب الذي ننشره اليوم.

إنه تأليف يهدف إلى احتواء «الشخصانية الواقعية» ويستوعبها ويتجاوزها إلى «غدية» غنية بقدر ما هي عنيفة. ذاك غضب من ينتصر للعدل، وهو صوت «ثالثي» يجهر بشهادة على الغرب الذي مارس الاستعمار القديم بالأمس، ولمّا يزل يمارسه، حتى اليوم.

فكما يقول أندريه روبينه (André Robinet): «يجب أن نسمع صوت هذا المغاربي، هذا المفكر. يجب أن نمعن الإنصات للحبابي الذي يجدّد، في هذا الكتاب، الالتزام بالشخصانية الواقعية، بإلحاحٍ قوي، قلّما عرفه التاريخ المعاصر».

لقد تعثّر هذا الكتاب كثيراً، إذ كان من المفترض أن يصدر سنة ١٩٧٣. لكن، لسوء الحظ، أضاع الناشر النسخة الوحيدة المرقونة والمنقحة. فلم يعد المؤلف متحمساً، إلا قليلاً، لينكبّ، من جديد، على إخراج مخطوط أولي كان يحتفظ به وتنظيمه. هكذا أخذ يتم تصميم الكتاب، وتنمو فصوله وتتنسّق، مرة أخرى على مهل وعلى هدي المزاج.

هذا، وفكّرنا قبل أن نباشر الطبع، أن نطلب من المؤلف مراجعة بعض المعطيات الإحصائية وتغييرها، حتى تواكب ما جد في مختلف الميادين. لكن تبين لنا، بعد التأمل، أن كل المعطيات تتحول بسرعة، وأن الغرض الأساسي للكتاب ليس تسجيلاً أو إحصاء لذاته، وإنما الاستشهاد بالأمثلة المرقومة، بالقدر الذي يساهم في توضيح المشاكل الثالثية والتأمل فيها.

يسرنا كثيراً أن نقدّم إلى القراء هذا الكتاب، آملين أن يكون من بينهم العديد ممن يعتنق «الغدّية»، وأن يستقطب مناضلين من أجل غد أفضل بالنسبة إلى الجميع وإلى كل «العالم الثالثي».

الناشران

---

(٥) انظر مقال غبريال جيرمان (Gabriel Germain)، في: *Cahier du sud,* no. 381 (février 1965).

(٦) *Jeune Afrique* (10 septembre 1962).

مدخل :
العالم الثالث يتحدّى

أولاً : التحدي ليس إعلاناً للحرب

هل هو كتاب تهجُّم؟

لا! أبداً، بل ليس حتى مرافعة. إنه على الأكثر شهادة. وليس في الأمر أي ضرر بالنسبة إلى أحد من أولئك «القوم» الذين ينتمون إلى عالم القمامات الليلية التي تتصدى لها الرياح بمخالبها لتخدش «الروح» القاسية التي تتمطط مثل أذيال الضباب.

لقد جئنا، فقط، لنؤدي شهادة على الغرب، نؤدي شهادة بالكلام الذي يموت بأسرع مما نتصور. فما يزال أمامنا متسع من الوقت. فلينصت من يستطيع. إن الصمت العالمي أقوى منّا جميعاً، لو. . .

أيتها الـ «لو» المسكينة! إنك لم تستطيعي حتى وضع باريس، باريس، لا أكثر في قارورة.

أيها المتخلّفون خرّوا ساجدين!

فسيكون من الحماقة أن نصرّ على القيام بالدور الذي يفرض علينا، على الرغم مما نعانيه من سحق وهزات في حياة دون مستوى العيش. لقد انتهى «زمان النعمة» حيث لم يكن أحد يماري في سيادة الغربيين وحلفائهم من «الأهليين». إننا نجهل الشغف بما هو أساسي، وكأننا قد أصبنا بعمى تام. آهٍ عليك يا عهد انهيارنا المعنوي! لقد تزوجنا في ليلة عاصفة فأتخمتنا الأحلام الشبقية في ظل الحضارة.

لقد طال علينا الأمد ونحن نمارس لعبة الزوج المطرود من بيت الزوجية. فيا من تبوّأتم المكان الرفيع، من أعلى شرفتكم، ارحموا مصيرنا!

ما أشد جمال مشهد وَحلِنَا! إن إرضاءكم يرغمنا على أن نظهر، أبداً، خلف قناع بهلول، أو غاطسين في مفارقات وأعمال غير لائقة.

وفي انتظار رحمتكم، يقف مغوَارونا مسلحين بالقصب والتمائم يذرفون الدموع، في حين توجهون أنتم الحضارة الإنسانية نحو طرق مسدودة ومليئة بالمفرقعات، ومواكب أخرى من الأسلحة النووية والبكتيرية.

* * *

انظروا!

دم؟

دم كثير!...

ومع ذلك ستظلون، من أعلى شرفتكم، تتداقّون الأقداح تيمُّناً بصحة التقدم وسلامته، إلى أن يأتي اليوم الذي لن يعود فيه للشرُفة سلم، فلتحطم الطوابق وحتى الأدوار الأرضية. إننا جميعاً ننتمي إلى طابق ما تحت الأرض، وسوْف لن نأخذ معنا، كأمتعة يدوية، سوى هاجس حنين لتوازن عالم متصدع أصيب بدَوَران.

* * *

أيُّها القرن العشرون! آهٍ عليك!

قرن العجائب، وقرن عشرين أكذوبة في اليوم، قرن الدم. لقد أضعت البسمة كما أضعت، ويا للأسف، الأحلام والأوهام.

إن أملنا هو أن يحل اليوم الذي تكف فيه شعوبنا عن الحياة في ظلكم. كفاكم إطعامنا حساءً حلواً في مراضع مسمومة.

نستطيع أن نتنبأ، رغم أننا لا نحظى بمواهب الأنبياء، بأن تاريخ شعوبنا يدور في دائرة مفرغة، وسيظل يمشي القَهْقَرى إلى أن تنزل به الضربة القاسية. إن الحلم يغرقنا في اليأس، ويجعلنا، أيها الإخوة، نزحف أمامكم.

* * *

لقد حان الوقت أن يكفّ العالم الثالث عن التشّكي والأنين، واتخاذ موقف المُتَّهم. لقد حكم عليه بأن يتزوج العدم ويتمثّل به في عالم التكرار والملل. إننا نرفض الانغلاق والانحصار اللذين يفرضهما علينا الغرب. نرفض، أيضاً، التاريخ اللاافقري اللّزق بماضٍ نرجسي.

إن المستقبل بالنسبة إلينا، أساساً، هو أن نبدع الحاضر مع الغرب «المحتكر» أو ضده،

وأن نستوعبه بقـوة، وإذا ما دعت الضرورة، أن ننـتزعه بـالرغم من قِصَر بـاعنا، فهـل هناك شيء أكثر عدلاً من ذلك، أيها الإخوة الإنسانيون؟

* * *

إن الامـبراطوريـات تموت، هي أيضـاً، ويموت، كـذلك أبـاطرة البـلاستيك والنفط، والنحاس. . . وخاصة حينما يكونون قد أقاموا امبراطورياتهم على براكين.

* * *

أيها الإخوة!

إن فراغ أدمغتنا لا يفترض فراغ قلوبنا. إننا قادرون على أن نحب، ولكن قرف العدم يمنحنا القدرة اللامحدودة على الكراهية.

«يا له من غد، هذا الشيء الكبير!

مِمَّ سيكون الغد مصنوعاً؟» (فيكتور هيغو).

وقبل الغد، ماذا يوجد اليوم؟

إن التسلقات والتشابكات المتتالية بالانقطاع أدمجت عصر العقلانية في اللاعقلانية، ولم تدع للعقل ولا للأخلاق الوقع المنتظر.

ألا يمكن قلب هذه الوضعية؟

ذاك سؤال يوجه إلى الغرب سيد العالم ومالكه.

لكن، ويا للأسف، إن نقصان عدد المحطات وتكاثـر الزوابـع يساهم في جعـل العالم يعـاني قلق سن اليأس. وحيث إن ذاك شيء ليس من صنيعنـا نحن الثالثيـين، فلنزعق عـلى الأقل لنبدّد الصمت، الأخ التوأم للفراغ. فطبيعتنا الخاصة تمقت الكلام الفارغ.

أليست طبيعة الآخر هي كذلك تمقتنا؟

لنزعق! «فالذي لا يقول شيئاً يتقبّل كل شيء».

* * *

إن أخذ واقع الغضب الثالثيّ بعين الاعتبار لا يعني بأيّة حال، الـرأفة بـه أو خضوعـه لأبويتكم التي لم تمت بَعْدُ!

فالذين يفقدون هويتهم يفقدون، في الوقت نفسه، قدرتهم عـلى الاختيار، ولن يخشـوا بعد ذلك أي شيء. فاليأس المطلق قد يـدفع إلى الشر المـطلق عوضـاً عن الخير النسبي وقـد يكون اليأس أحياناً بنّاءً ومطهراً.

إن تحدي العالم الثالث سينطلق من هذا اليأس المنعش، ومن الإيمان بمستقبل مشترك وإلا لن يكون ثمة مستقبل لأي أحد. حينذاك فإن اليأس هو الذي سيخترق، من خلال الضباب، مَفْرَق الطرق الفارغة ويساعد على تدفّق الشك الغامض، وسينتصب العالم الثالث في ظلمة الطرق المسدودة التي لا يكف الغرب عن ترصيفها، متحدياً بمرارة وحدّة، وهو أعزل من كل شيء إلّا من إيمان بحيرة وتناقض، لا سند لهما في التاريخ. إن تحدي العالم الثالث لا يمثل سوى فترة النفي في جدلية التناقضات.

فماذا عن فترة التركيب، ومتى ستحلّ؟ إن عملية التركيب تفرض على كل الشعوب أن تلعب دورها! . . .

***

أيها الطيّبون!

لَمِن غير المعقول، أن يظل أولئك الذين حطم البؤس فَقَارَهم منبوذين كليّاً من اللعبة. لقد حلّ الاحتقار عقدة لساننا، وإنه ليعطينا ما يكفي من القوة كي تتفجر من بين أحشائنا ألفاظ نارية مندّدة بالبراءة المزيّفة.

لقد نفيتمونا خارج التاريخ، واختلستم موادّنا الخام، ودستم أَنفتنا، ولكنكم لم تنجحوا، ولن تنجحوا أبداً، في أن تجتثّوا من قلوبنا احتقارنا الجور.

***

لنؤكد، مرة أخرى، أننا، في هذا الكتاب، لسنا في حاجة إلى أن نرفع أصواتنا و«نعلن الحرب» ضد الغرب. إننا نثبت فحسب أرقاماً وأحداثاً، ونعطي، من حين إلى آخر، الكلمة للمسؤولين «النيرين» في الغرب. فالقضية قضية تحدٍّ من أجل التوضيح، وحملة للشرح. إن الغرب النرجسي يكتشف نفسه جميلاً جداً، أجمل من الواقع، لأنه لا ينظر إلا في مرآته الخاصة، تلك التي صنعها هو نفسه. . .

ولعل أجلّ خدمة يستطيع العالم الثالث أن يقدمها إلى الغرب هي أن يقوم بدور المرآة التي تعكس ظهره كذلك.

***

بهذا الصدد، لنتأمل الفقرة التالية التي جاءت على لسان الرئيس جورج بومبيدو في ندوة صحفية[1]:

«إذا لم نتمكن من تقليص الفجوة بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة فإننا سننقاد، بشكل أو بآخر، نحو مواجهة خطيرة وسيكون ذلك كارثة بالنسبة إلى العالم».

---

(١) عقدت بتاريخ ١٧ آذار /مارس ١٩٧٢.

هل سيكون لتصريحه صدى؟

من المحتمل . . .

من الممكن . . .

من الضروري . . .

***

لم يمر على ندوة رئيس الجمهورية الفرنسية شهر حتى ارتفعت أصوات مسؤولة من العالم الثالث لتصيح ضد المراوغات الديماغوجية، وضد «المساعدات الزائفة». ففي ١٣ نيسان/ أبريل ١٩٧٢، عند افتتاح مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية بسانتياغو، تجرّأت جماعة على أن تفضح، لأول مرة في تاريخ منظمة الأمم المتحدة، سوء نية موزعي النصائح والهبات: **«إن الشعوب الفقيرة هي التي تساهم في نمو مدن الرفه! . . .».**

إن علاقات المساعِدين بالمساعَدين تُظهر أنه بينما تزداد البلدان الغنية ثراءً تتمادى البلدان الفقيرة غارقة في التخلف. لم يلك الرئيس سالفادور آللندي ألفاظه عندما صرح: إن البؤس أخزى أنواع الشر. وحينما أعلن على رؤوس الملأ: «إن أكثر من نصف الإنسانية يعيش في ظروف دون المستوى الذي تتطلبه الحياة العادية [. . .]. فنحن، الشعوب الفقيرة، نساهم بمواردنا وبشغلنا في رفه الشعوب الغنية [. . .]. فأغلبية البلدان الغنية تدافع بقوة لا تكل عن هذا النظام الاقتصادي والمالي والتجاري، المجحف جداً بالعالم الثالث لما تجد فيه من مصالح وامتيازات خاصة . . .».

***

إن أخذ الواقع بعين الاعتبار لا يعني قبوله. فوضعيتنا كمتخلفين ليست كلها من صنعنا، كما أن فضْحنا إجرام الغير لا يعني تبرئتنا. إن الكثير من المساعدات الغربية تفيد حُفناً من زبانية الغرب الثالثيين الأهليين أكثر مما تفيد شعوبهم. وأغلبية المستفيدين كانوا من «المتعاونين» أيام الاستعمار، أو من المسؤولين عن تسيير الدولة وشركائهم «المتفهمين» و«الليّنين».

ليس ذاك هو الوجه العبثي الوحيد لوضعيتنا، ونحن وإن كنا نتحمله فإننا لا نقبله، كما لا نقبل النموذج الذي يقدمه لنا الغرب كنموذج مثالي ووحيد. فالنخب الثالثية تريد، أولاً، أن تكيف هويتها وأنماط حياتها مع أوضاع تعانيها، ثم أن تثبت ذاتها إزاء الغرب وفي تعاون معه، لا بالاندثار فيه. فالتبعية الروحية عبر الثقافة (تقاليد وأعراف) نفي محض للذات. إنها أشد وبالاً من التخلف الناتج عن التبعية التقنية المعيشة في واقع بليد، والتي تذكّرنا بما يسميه استاندال بـ «البغاء المشروع الذي يصل إلى درجة التصادم مع العفة».

***

أيتها الحقيقة المقدسة! صلِّ من أجلنا!

إننا لا نستطيع قبول إقحامنا في عالم من صنع الآخر وتجهيزه، ذلك الذي يفرض علينا التفاني في عبادة أوثان بتقليد كبشي: أوثان المردودية، والفائدة، والمزاحمات «الحرة»، . . . التي يخططها حابكو اللعبة ويفرضونها لخدمة مصالحهم.

إذا لم يكن بإمكان الغرب أن يجد نماذج ومثلاً أحسن مما لديه الآن ويقترحها على نفسه وعلينا، فإننا نفضل أن لا نظل محبذين للنماذج الحالية. لقد أصبح كل شيء بضاعة للمتاجرة. فكل شيء لا يدخل في اهتمام البورصات لا قيمة له. إن الثالثيين لا يملكون أي شيء، ولم تبقَ لهم سوى الكلمة التي تؤدي الشهادة، لأنها تفلت أحياناً من قبضة المقايضات التجارية. هكذا، حتى عندما يظهر الثالثيون أنهم بُكم تماماً فإنهم، في الواقع يعرفون، عند الحاجة، كيف يصيرون من أكبر الثرثارين. فليس للبؤس حمى رومانسية إلا عند أولئك الذين يستغلونه.

في سنة ١٩٦٤ صرح جان ـ بول سارتر بوضوح مرير: «إن الأدب لا ينقذنا أكثر مما تنقذنا السياسة. فالمجاعة شر مطلق[. . .]. أتعتقدون أنني أستطيع قراءة روب غرييّه (Robbe Grillet) في بلد متخلف؟ فلا وزن للغثيان[٢] في بلد يموت فيه الطفل جوعاً». نعم، إن الذين يعيشون هذا «الشر» يعانون مجاعتهم دون أن ينكفئوا على أنفسهم صامتين. يجب أن يصرخوا منددين بعجرفة التغرب[٣] المستعار. إن الطلاء يلمع، ولكن الحقيقة لها أشواك حادة. لنقطع الصمت ولندد بالمجرمين الأجانب وبشركائهم من الأهليين. ذاك هو الواجب الأسبق اليوم.

* * *

كيف نصف العصر الحالي الذي أصبحت فيه التقانة مصدر كل الفضائل، بما فيها تلك التي تعطي الأسبقية والأفضلية على الدوام «لمصالح الأقوياء»؟

كان من الممكن أن يكون «التصنيع العام» حلاً مناسباً لو لم يكن استفزاز التخلف يكتسح العالم، بما في ذلك مجتمع الرخاء[٤].

لقد وصفوا النزوع إلى تعميم التصنيع بـ «ما بعد التصنيع»، لكن قد يعترض على ذلك بأن نعت التصنيع بـ «قبل» وبـ «بعد» يموضع الشيء بالنسبة إلى الصناعة دون أن يعرّفه، أو على الأقل، دون أن يحدده.

اقتُرحت أيضاً التسمية «مجتمع تقاني». نظن ذلك شيئاً موجوداً فعلاً. ولكن لا شيء يدل على أن مجتمع الغد سيكون تقانياً. وعلى فرض أنه سيكون كذلك فهذا قد يعني أن

---

(٢) اسم إحدى التمثيليات لسارتر.

(٣) التغرب، أي الانتساب إلى الغرب.

(٤) انظر: Jacques Soppelsa, *Les Etats Unis* (Paris: Presses universitaires de France, 1972). حيث يظهر الفارق بين أمريكتين: أمريكا الفقراء والأخرى. . .

مجتمعنا لن يكون إلا تقنياً، ولن يعير أي اهتمام للجهود التي تبذل حالياً لتدارك التأخر الذي تئن تحت وطأته العلوم الإنسانية. وسيظل المشكل، قائماً.

إننا نفضل استعمال العبارتين «عصر الحينونة»(٥) أو عصر «التغير المطلق» اللذين يكتسبان، على الأقل كما سنرى، مزية التحديد الإجرائي.

فالإنسانية لم تعرف، في أي عصر من عصور نموها، سرعة أشد جنوناً مما تعرفه الآن.

ثانياً: الغدية

إن المباحث الأساسية التي سيتطرق إليها هذا الكتاب هي ما يلخصه السؤال التالي: هل توجد، اليوم، فلسفة قادرة على أن تهيئنا لعالم الغد؟ غالباً ما نصطدم بمنظومات مغلقة على معايير كقصور مهندة لا يدْخلها إلّا من يعرف كلمة السر أو من تسلق الأسوار ليلاً حيث ظلمة الليل حالكة.

فالتقانة والخطابات العلمية تبدو، أكثر فأكثر، مستعصية على المنظومات المنطوية على نفسها، وعلى المعرفة الشاملة. إن القيمة العلمية لفلسفة ما من الفلسفات الحالية تكمن في وعيها حدودها الخاصة. **لذا يجب أن ينطلق كل تأمل في الإنسان ومصيره ومستقبله من الحوار مع الآلة**. فلنبدأ إذن بطرح تساؤلات على التقانة ونكررها كل حين، إذ بقدر ما تعتبر الفلسفة الآلة شريكاً بالتساوي في الحياة الحالية، بقدر ما تلتصق جذرياً بالواقع. فلا يغيب عن بال أحد ما ستؤول إليه الفلسفات إذا لم يكن هذا الالتصاق: ستضيع مفاهيمها المجردة، وسيحلق الفلاسفة في الفضاء، ولن يعود أريسطوفان ليجهد نفسه بحثاً عن أرجلهم التي تتخبط في السحب...

لقد تسربت الآلة إلى صميم حياتنا الخاصة، فباتت عضواً من «الأسرة»، وشرطاً أساسياً لوجودها. منذ بضعة عقود، كانت البرجوازية المغربية، مثلاً، تبحث لفتياتها الشابات عن أزواج قادرين على توفير نفقات الأسرة، ولم تكن تشترط سوى حسن السلوك الذي تعتبره أفضل ثروة وأقوى أسس السعادة الزوجية. أما الآن، فإن الفتاة هي التي تبحث لنفسها عن زوج حسب معيار جديد للسعادة: «العصرنة». ومقياس «العصرنة» لديها هو توفر مجموع المظاهر الملائمة لحياة العصر. فبعد أن كان آباء الخطيبة يضعون السؤال: «ماذا سيقول الناس عن أصل الخطيب وسلوكه؟» أصبحوا يتساءلون اليوم: «إلى أي رقم استدلالي وصل في إطاره الإداري؟ هل سيسمح له مرتبه بأن يتملك سيارة وثلاجة وآلة غسيل...؟».

---

(٥) الحينونة (l'en-train-de). انظر: محمد عزيز الحبابي، **من الكائن إلى الشخص: دراسات في الشخصانية الواقعية**، مكتبة الدراسات الفلسفية (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨).

على كل فلسفة «غدّوية» أن تعتمد هذه العلاقات التي ترتبط بالنمو الكبير للآلة والآلية. فمشكل معنى «عالم» و«غد»، كمشكل معنى «عالم الغد»، كلاهما في مرحلة تبلور داخل سيرورة لم تكتمل بعد.

* * *

إن الحينونة تثير الغرب وتزعجه وتقلقه. إنه يعاني أكبر شعور بالهجر والخذلان، وبالانفصام عن التاريخ في ضياع أمام «صدمة المستقبل»(٦). فالحلول المقترحة لعالم الغد متعددة جداً، ولكن يبدو أنها جميعها لم تنجح بعد.

إن أشد المهندسين المعماريين عبقرية لا يستطيع بناء كوخ متواضع إلا فوق أرض ثابتة. فجميع المستقبليين والمفكرين الغدويين يتفقون على تشخيص المرض الخطير الذي أصيب به عالم اليوم في كل أنظمته. ولكن العلاجات المقترحة تتناقض، ولم ينجح أي واحد منها في شفاء المرض، أو على الأقل، في التخفيف منه. لذا يخشى ألّا ينجح أولئك الذين يعترفون بعجزهم عن حل المشاكل التي يضعها عالم اليوم، فكيف بحلّ ما سيطرحه عالم الغد.

لعل أكبر شيء يحول دون إيجاد الحلول المناسبة هو ارتكاب الغرب نفسه خطيئة التمركز على الذات. ذاك هو ضرره الجذري. وما دام الغربيون لم يعوا ذلك ولم يعالجوا أنفسهم بنقد ذاتي جدي، فلا أمل يرجى، لا لإنسانية اليوم ولا لإنسانية الغد. لقد احتكر الغرب الماضي ونهج طريقاً معوجاً. فعليه، إذن، أن يتفهم أن من الضروري أن يغيّر وجهته قبل أن يستأنف مسيرته نحو الغد. وإن عالم الغد لن يتحمل أن تحتكره أية دولة أو كتلة من الدول. فهناك دول شرقية وأخرى غربية في معسكرين يحرس أحدهما الآخر، ويعوق سيطرته على العالم، ثم إن هناك العالم الثالث الذي أخذ يتحرك، باستحياء، أحياناً وأحياناً كالزلازل والعواصف، بكل ثقله الجماهيري وقوة غضبه، فيعاكس اللعبة.

إن عالم الغد سيتحقق بتعاون الجميع ومن أجل الجميع، أو لا يتحقق إطلاقاً. إن شعاره الذي يفرضه التاريخ يتطابق مع التحدي الذي بدأ الثالثيون يمارسونه انطلاقاً من القارات الثلاث الكبرى. ففي المغرب، مثلاً، حينما يمنع أطفال من المشاركة في ألعاب جماعة من شبان الحي، بدعوى عدم توافر المكان للجميع، يجيب المطرودون:

«إما أن نلعب معكم أو نمنعكم، بشَغَبِنا. فلنلعب جميعاً أو لا أحد يلعب».

لقد وهبنا قدرنا سروراً واحداً مجانياً، هو ما يجلبه الخطاب العلمي. فلنرسخ في الوعي الإشارات الحية عن حضورنا في العالم بكل ما نحن، وبكل ما نريد أن نكون. إننا تعوّدنا على ترف الغضب الذي يصاحب كل ما فينا مما لم يستطع تجاوز ما هو قابل لأن يعبّر عنه.

---

(٦) هذا هو عنوان أحد الكتب للأمريكي الفين توفلر (Alvin Toffler) وقد حلّل فيه أوضاع مجتمع التصنيع الكبير وكيف ستكون غداً. وقد ظهر هذا الكتاب في الولايات المتحدة عام ١٩٧٠.
Alvin Toffler, *Future Shock* (New York: Random House, 1970).



ثالثاً: الاتّهام ليس عقاباً

«إن التزام المفكر هو أن يحكي ما يحسّ به»[٧]

إن الاتهام ليس، دائماً، إدانة، كما أن المقارنة ليست حجة وبرهاناً. قد يعني التنديد بما هو قائم (وبما هو في طريق غير مستقيم) من أجل انطلاقة أفضل، أي تمهيد الحاضِر لبناء المستقبل. وهذه مواقف تجد مشروعيتها في ذاتها.

غالباً ما يعزو الثالثيون إلى الغرب بعض الحواجز التي تعوق ترقيتهم، ويكتفون بإحالته على ضميره وعلى التاريخ. وحيث إن الشعوب المتخلّفة تساهم، هي أيضاً، في تخلّفها وتعي ذلك، فإنها، كذلك، تتهم نفسها. ذلك شيء إيجابي، إذ متى اعترف بالأغلاط والأخطاء تجلت وأصبحت واضحة وأمكن التصدي لها. إن الاتهام المندِد والاتهام المتهِم موقفان ضروريان لوعي أن التخلف ضرر جذري ويتحمل مسؤولية تطهير الوضعية.

بناء على ذلك، يمكن أن نتساءل:

في أيّة بيئة تاريخية وإنسانية يتم وسيتم الرجوع إلى الحقيقة والواقع بكل صراحة وعزم؟

ما هي الفوائد التي سيستخلصها إنسان الغد؟

لن تقف هذه المحاولة عند النقاش من أجل النقاش لذاته. فلكي يكون التشخيص نافعاً يجب ألاّ تكون الانطلاقة عنيفة، أو من الفراغ.

إن انتصاب العالم الثالث وجهاً لوجه مع الغرب موقف يتصادم مع ما هو إنساني: إنهما نموذجان يصعب، إن لم يستحِل، تواجدهما، الشيء الذي لا يدع أي أمل في المحافظة على التعددية الثقافية. ويكفي أن نتأمل الحضور العسكري والاقتصادي والسياسي الدائم للغرب في جميع القارات. إنه حضور يكون الطابع الأولي المسيطر في عالم اليوم.

فهل سيكون الأمر كذلك غداً، وبنفس الغطرسة والعنف؟

لقد كان من الممكن أن يكون المرء مؤشراً إيجابياً. لكن رغم عنفه، إنه لا يزيد على أن يذكّر بالنسر المجروح الذي لا يستطيع الطيران بجناح واحد. إن المرء في حاجة إلى اندفاع ثوري ضد إرهاب النقد ورأس المال والمردودية، . . . ففي وضعه الراهن، لا يثير سوى تمرد، من حين إلى آخر، ضد طغيان الأشياء / المواد المصنّعة، الأشياء التي تتضاعف في أنظمة المزاحمة «الحرة» بكيفيتها الخاصة، وتولّد حاجات جديدة من أجل أشياء جديدة. هكذا يظل المرء قاصراً على أن يستجيب لأمل المستضعفين إزاء أنظمة المزاحمة المتطرفة التي تزداد صلابة، رغم أنها ترزح تحت ثقل الجور واللامساواة المنبثقين عنها ذاتها.

* * *

---

(٧) Jean - Paul Sartre, *La Vie tchécoslovaque* (mars 1969).

مما يبعث على التفاؤل توافر مؤثرات واعدة. فهل سنعرف كيف نفكّها بتبصر ودراية لصالح غد أفضل بالنسبة إلى الجميع؟

فكما أن القضاة لا يصدرون أي حكم في محاكمة ما إلا بعد الاطلاع التام على مجموع مستندات الملف، كذلك يبدو أن من الواجب الاهتمام، أولاً، بعلم «الحاضر» قبل التصدي لعلم «المستقبل». صحيح أن رجال الصحافة قد أخذوا يتعاطون هذا الميدان، بيد أن الأمر هنا لا يتعلق بسرد أخبار صحفية ونقل صور (روبورتاجات)، ولكن بتشخيص عالم اليوم في أعماقه من أجل استشراف الغد.

* * *

ولكي نبرر وضع المصطلحين الجديدين «غدية» و«غدوي» يجب أن نحدد المعنى الذي نعطيه لهما في هذا البحث.

نعني بـ «غدية» الدراسة العلمية «للغد» انطلاقاً من معطيات إحصائية مستقبلية، قائمة أو متوقعة. فبالنسبة إلى المستقبل المعادل لـ «تاريخ» (كمادة مختصة بدراسة الماضي)، تختلف الغدية عن المستقبلية (أو عن الماركتينية، كما يسميها البعض) من حيث إنها تريد أن تكون منهجاً علمياً لمعالجة نشاطات إنسانية قصد استخلاص عناصر متوقعة وتهم الإنسانية جمعاء، أي بكل إنسان وبمجموع أبعاده، المادية والوجدانية، والروحية. أما المستقبلية فهي «أساساً دراسة للمستقبل المباشر»[٨].

إن الغدية، وإن اعتمدت المستقبلية كمادة مساعدة، ترمي إلى أبعد منها متجاوزة لها. فالغدية لا تقتصر على تمثّل مجموع الأبحاث المعرفية المتكاملة للمقاربة ولمعالجة النشاطات الانسانية (علم الغد)، بل تهدف أيضاً إلى أن تصبح نسقاً فلسفياً وأخلاقياً. فهدفها مزدوج: **الإنسان كما هو في ما يتحمله ويقوم به حالياً، والإنسان في توتره وانشغاله بكيف يجب عليه أن يعمل.** هكذا ترمي الغدية إلى استخلاص الأسس الواقعية لفلسفة الغد ولفلسفة من أجل الغد (تلك التي ستنشئها الأجيال المقبلة انطلاقاً من علاقتها بمشاريعها الخاصة بالمستقبل).

إن تشخيص الأوضاع الراهنة من منظار غدوي ضرورة تفرض نفسها باستعجال، وذلك لأسباب متعددة؛ نعدّد منها ثلاثة على الأقل:

١ ـ عدم الحكم على الأشياء إلا بعد تصورها. فالفرضيات تأتي قبل الإثبات والبرهنة.

٢ ـ إن المستقبل يتعلق بواقع لم يتحقق بعد، على عكس الحاضر الذي يتميز بكونه في حركة المضي والإنسياب. إنه «حال». ولا يمكن الشك في واقعيته (وإن إثبات واقعيته ليست من قبيل أحكام القيمة).

---

(٨) Gaston Berger, *Encyclopédie française*, pp. xx, 12 et 54.

٣ ـ إن تكامل المستقبل يفترض، مسبقاً، معرفة استثمار المعطيات التاريخية والمجتمعية، باستعمال جيد للمفاهيم الإجرائية. ويستلزم، من ثمّ، التفكير في المستقبل منطقاً جديداً يلتصق التصاقاً قوياً بالسياق التاريخي والفكرولوجي الحالي.

انطلاقاً مما سبق، نضع التساؤل التالي:

أين هو عالم اليوم من التطور الذي تشهده مختلف الميادين، خاصة ميادين التقانة والعلوم؟

فيما يلي نورد، بإيجاز، بعض مظاهر هذا التطور.

هناك، أولاً، اكتشاف «الفضاء المتعدد الأبعاد». فالفضاء لم يعد يعتبر فراغاً ليس له سوى ثلاثة أبعاد. لقد وصلت الفيزياء والرياضيات إلى مفهوم «الكونتيموم» (Contimum) أي الفضاء ـ الزمن الرباعي الأبعاد. منذ ذلك الحين، وتبعاً لآينشتاين، أصبح العلماء المعاصرون يسلّمون بأن «المعايير» (أو المقاييس المختلفة التي تقيس الزمن والفضاء الهندسي وجميع أحجام العالم الفيزيائي) كلها متداخلة.

أعطت هذه المكتسبات المفهومية للنظريات الفيزيائية ـ الرياضية إمكانات عملية جمة. فأخذ بعض العلماء يطبّقون مفهوم الفضاء الرباعي الأبعاد على علم الأحياء وعلى حياة المجتمعات، وراحوا يحلّلون معطيات متعددة يمكن أن تستخدم في تحديد عناصر الكون. هكذا توصلوا إلى استخلاص مبدأ هام: كل ما يوجد داخل العالم، وكل ما نعلمه مسبقاً، وكل ما يمكن أن نكتشفه أو حتى أن نتصوره بكيفية تجريدية يرجع إلى طاقة لا شكل لها. ذاك ما تعبر عنه معادلة أينشتاين ($e=mc_2$).

«تسيطر هذه الوحدة الأساسية للتركيب على التعقيد اللامنتهي للفضاء الرباعي الأبعاد الذي هو ذاته نسيج العالم»[٩].

***

نقتبس المثال الثاني من ميدان علم الأحياء:

يبدو أننا دخلنا «عصر البلاستيك» وتجاوزناه. فعلم الأحياء يستطيع أن يغير مختلف أعضاء الكائنات الحية بأخرى من البلاستيك، باستثناء دماغ الإنسان، وإن كانت آخر الأنباء تروي أن الأحيائيين يفكّرون في تغيير خلايا إنسانية غير محددة بخلايا مخية!...

يسوّغ لنا إذن أن نؤكد أن عصر زرع القلب قد تجووز، أو أنه في طريق ذلك، وأن الدكتور بيرنار لم يعد اليوم، النجم الذي كان بالأمس.

***

(٩) Henri Prat, *L'Espace multidimensionnel* (Montréal: Presses de l'université de Montréal, 1971).

هناك سؤال يفرض نفسه: هل تُكوِّن هذه المخترعات الخارقة للعادة تقدماً حقيقياً للإنسانية، أم أنها مجرد خطوة من خطوات تقدم العلم والتقنيات؟

يَعِدُ بعض الباحثين بأنه سيتم، عما قريب، القضاء على المجاعات في العالم، وذلك بمضاعفة المساحات القابلة للزراعة.

يا له من أمل!

لكن الباحثين أنفسهم ـ للأسف ـ يتنبأون باستحالة تجنب، أو، على الأقل، مراقبة، تلّوث الجو الذي قد يبلغ درجة من التلوّث، تصبح معها المواد الغذائية خَامِجةً تماماً.

* * *

من الممكن أن نتساءل، في هذا السياق، عمّا إذا كانت المعرفة المكتسبة في الجامعة، وعمّا إذا كان المنطق الذي نستعمله ما زالا صالحين اليوم، وبالأحرى هل سيكونان كذلك غداً؟

لا، بكل تأكيد.

لقد أزاح «المخ الالكتروني» العقل عن عرشه، وخطا الكمبيوتر خطوات هامة منذ محاولة العالم البريطاني تشارلز بابيدج (١٧٩١)، إلى أن تم إنجاز أجيال حديثة جداً ستتوج قريباً بجيل رابع. وفي سياق كهذا، أصبح من الضروري أن تتكيف ذهنية الجميع، غربيين وثالثيين. وإذا كان قد تم بالفعل التفكير من جديد في مفاهيم: «الفضاء»، و«الزمن»، و«الخلية»، و«البنية» و«الكون» وأعيد تحديدها، فإن ذلك يجعل من **المستعجل إعادة التفكير في الإنسان، وإعادة تحديد مفاهيم: «ذاكرة»، و«عقل»، و«ذكاء»، ... والخ.**

لقد أنجزت «ذاكرات الكترونية» تتراوح قدرة تخزينها، حسب نموذج الكمبيوتر، ما بين ٤٠٠٠ ومليون وضع. يضاف إلى ذلك ذاكرات ثانوية تُلحق بالذاكرة المركزية. والمِجذات الملحقة تنقسم إلى نوعين: صنف ذي «مدخل انتقائي» تبلغ قُدْرَتُهُ التخزينية حوالى ٤٠٠ مليون وضع[١٠]، ويتطلب الحصول على جواب لاستفسار ما، حوالي نصف ثانية الأمر الذي لا يرضي المستعملين لأنهم يريدون سرعة أكبر.

أما الصنف الثاني فيتميز بـ«مدخل مقطعي» حيث تتكون المِجذة من أشرطة مغنطيسية تبلغ حمولة (قدرة التخزين) كل شريط منها حوالى ١٥ مليون وضع.

* * *

أن كُلَّ تأمل يتعلق بالمستقبل مجبر على أن يخضع لمجموع هذه الانجازات. وبناءً على

---

(١٠) تعود هذه المعلومات إلى عام ١٩٦٩. وقد حقق الكمبيوتر منذ عشر سنوات خطوات عملاقة، تستطيع ذاكرته اليوم تخزين عشرات المليارات من الحروف / الرموز التي يمكن الوصول إليها فوراً.

ذلك سوف لن ينطلق بحثنا حول «عالم الغد» من التعريف القديم الذي يرى أن الإنسان «حيوان عاقل»، وإنما سيعتمد تعريفاً مؤقتاً هو «الإنسان حيوان يقوم بشغل»، كما سيأخذ بعين الإعتبار ما يصدر عن تفكير الإنسان ويعتبره نتيجة من بين نتائج شغله كالنظريات والتصورات التي تصل بين إنجاز بعض الآلات المعقدة كالكمبيوتر. ولمزيد من الدقة، يضيف بأن الشغل لا يغير فقط المادة، ولكن يجعل الناس يتغيرون هم أنفسهم.

* * *

هل يستطيع الثالثيون أن يغيروا أوضاعهم ويتغيروا هم أنفسهم بالشغل؟ نعم، بكل تأكيد شريطة أن يسمح لهم بمصارعة التخلف.

إن الواقع يؤكد أن القوى المهيمنة في العالم تفرض سياسة تجميد النمو الثالثي، في الاقتصاد والتقانة، وتتخذ مواقف انتقامية ضدَّ كل من يحاول مقاومة صنف من أصناف الهيمنة والتخلف.

ما يسعى إليه العالم الثالث هو: «التمتع الكامل بسيادته وبوضع حد نهائي لمعاملات الحجر والضغوط الاقتصادية والسياسية...»[(١١)].

مثل هذا التغيير، يستلزم أن يقبل الغرب: «التوقف عن فعل الشر»[(١٢)].

* * *

مظاهر هذا «الشر» مختلفة ومتعددة، سنصادف العديد منها خلال الصفحات التالية. لذا سنكتفي هنا بالإشارة إلى البعض منها. يلاحظ أنه، بينما تظل ميزانية العالمثالثيّ عموماً رهناً بالمواد الأولية المخصصة للتصدير، يرتبط تحديد أسعار هذه المواد أساساً بالبلدان الغربية المستهلكة. هكذا تعرف أسعار المواد المصدّرة تدهوراً مستمراً، بينما تسجل المنتوجات التي تستخرج من تلك المواد ارتفاعاً منتظماً.

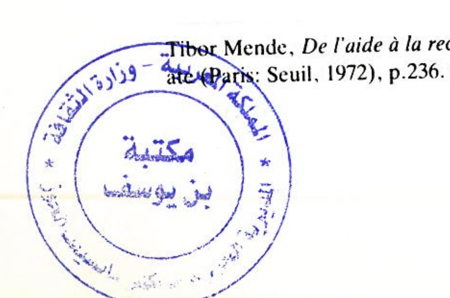
الملاحظة الثانية: لقد أخذت البلدان الصناعية - بالإضافة إلى احتكارها مجموع السلع المصنعة، أو جلها - تصدّر هي أيضاً المواد الأولية مزاحمة، بذلك، البلدان المتخلفة في هذا القطاع التجاري الذي كان من اختصاص العالم الثالث.

ويلاحظ أيضاً أن صادرات بلدان العالمثالثيّ تمر بسلسلة من الوسطاء الغربيين، وتخضع لضرائب تفرضها الدول المشترية.

---

(١١) Tibor Mende, *De l'aide à la recolonisation: Les leçons d'un échec*, l'histoire immédiate (Paris: Seuil, 1972), p.236.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٩.



يحلل أ. إمانويل (Arghiri Emmanuel)[١٣] عدداً من هذه الأوضاع المأساوية انطلاقاً من أمثلة ملموسة، إليك واحداً منها:

«طيلة مختلف مراحل صنع الشوكولاته، ابتداءً من زرع الكاكاو حتى تعليب المواد النهائية وعرضها في الأسواق، يتقاضى كل واحد من العمال مرتّباً محلياً (حسب المكان الذي يشتغل فيه)، بينما يتقاضى الرأسماليون المهتمون بهذا القطاع دخلاً عالمياً (حسب الفائدة والقيمة الدوليتين). هكذا يُحدد سعر الكلفة وسعر البيع انطلاقاً من مجموع الأجرة المحلية والعالمية المحددين مسبقاً. فمستوى الحياة المرتفع في بلداننا الصناعية مدين، في أغلب الحالات، لعرق جبين عمال ثالثيين ينتجون عدداً من المواد الخام التي نحتاج إليها، ويتقاضون عشرين أو ثلاثين، وأحياناً خمسين، مرة، أقل مما يتقاضاه العمال عندنا». ويضيف الكاتب نفسه في تعليق له بجريدة **(لوموند)** دبلوماتيك الباريسية[١٤] أن التفاوت بين عتبتي هذه المبادلات قد يبلغ، في بعض الحالات المتطرفة، ثمانين أو مئة مرة القيمة الأساسية: «هكذا تبلغ أجرة شغيل في الولايات المتحدة ما بين ٤ و ٥ دولارات للساعة، أما في زائير فلا تتجاوز خمسة سنتيمات». وهذا ما أكده السيد ربمنجارا وزير الشؤون الخارجية الملغاشي في افتتاح مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (C.N.U.C.D). بعد أن ندّد بالظلم الذي تمارسه البلدان الغنية في المبادلات التجارية والمالية على البلدان الفقيرة، عَرَّضَ بالأسعار والفوائد المرتفعة جداً للديون الداخلية المتعلقة بالاستثمارات الأجنبية قائلاً: «إن العالم الثالث يسدّد كل دولار يقترضه بأربعة دولارات».

* * *

لم يعد الأمر يتعلق بانعدام وسائل تضمن حياة مريحة، ولكن بظاهرة ضخمة تعرقل التطور، وتصدم الأخلاق العالمية والفلسفات التي تقوم عليها أخلاق اليوم وإنسيته، صدمةً قاسيةً.

إن المشكل بالنسبة إلى شعوب العالم الثالث هو أن تعرف كيف تختار بين الحاجات حينما لا يمكن إشباع سوى عدد محدود وجزئي منها (وإن كانت جميع الحاجات الثالثية في الواقع أولية)، وان تعرف، في الوقت نفسه، كيف تمارس اللعبة الكبرى للاستراتيجية التي يفرضها عليها **الآخر**، الكبير.

حقاً، إن الغرب يدرجنا في لعبته ولكنه يعيننا أيضاً. فسيرورة هذه المساعدة واضحة جداً. إنهم يرسلون لنا، على العموم، مواد غذائية، وآلات، ورؤوس أموال، ... الخ، ولكنهم يغرقوننا أيضاً بأسلحة وخبراء عسكريين وديون لا ترحم.

لماذا الأسلحة والمستشارون العسكريون؟

---

(١٣) Arghiri Emmanuel, *L'Echange inégal: Essai sur les antagonismes dans les rapports économiques internationaux*, économie et socialisme; 12 (Paris: Maspéro, 1969).

(١٤) *Le Monde diplomatique*, no. 217, (avril 1972), p.3.

أولاً، للدفاع عن الاستثمارات الأجنبية وإرساء الأنظمة القائمة لتصبح خاضعة وقادرة على صيانة رؤوس الأموال الأجنبية من التأميمات، وصيانة السكان الأصليين من «الأفكار الهدّامة».

لكن سؤالاً آخر يطرح نفسه هو: من يصون الخبراء والمستشارين العسكريين أنفسهم؟ لقد أمدتنا بالجواب عن ذلك جريدة **واشنطن بوست**، في عدد ١١ نيسان /أبريل ١٩٧٢، بصدد الحديث عن القنبلة المفجعة للهند الصينية: «كما ذكّرت بذلك القيادة الأمريكية في سايغون، يبرر الرئيس نيكسون هذه الهجومات بحرصه على حماية وإنقاذ حياة الجنود الأمريكيين في الهند الصينية الذين يقلّ عددهم شيئاً فشيئاً، بينما لا أحد من الجنود الأمريكيين الذين ظلوا هناك يقوم بدور فعّال في المعارك إلا في المناطق التي تشتعل فيها نار الحرب عملياً. . .».

فعوضاً عن الأرزّ والقمح والعقاقير ومختلف الآلات النافعة للصناعة والزراعة، صبّت الولايات المتحدة على الهند الصينية، أطناناً من القنابل، في كل دقيقة، على مدى ثلاث سنوات. . .

تضيف الجريدة نفسها، أن الرئيس نيكسون قذف الهند الصينية: «خلال الثلاث سنوات التي قضاها بالبيت الأبيض بما يقدر بثلاثة ملايين طن من القنابل [. . .]. لقد أصبح الرجل الذي يثير من أعلى السماء تخريبات أشد ضراوة من مجموع ما عرفته الإنسانية طوال تاريخها، وقد كان ذلك في وقت تسير فيه الحرب تدريجياً نحو نهايتها».

ما النتائج؟

لم تضع هانوي السلاح، ممّا فرض على سايغون (رغم سياسة التفتح) أن تظل تحت نير القوات الجوية الأمريكية.

لتحيا الحرب الداخلية! ومرحى لبائعي المدافع! إن صفقاتهم لا يعوزها الربح.

* * *

تلك أرقام قياسية محزنة، مقابل انتصار مأساوي! ففي الوقت الذي لا يتجاوز فيه حجم صادرات مجموع البلدان المتخلفة ٦٠ مليار دولار، تبلغ قيمة التكاليف العسكرية، على الصعيد العالمي، ٢٨٠ مليار دولار!

فأيُّ غدٍ ينتظرنا؟

وكيف سننتظره، وكيف نلقاه؟

رابعاً: من نتّهم؟ وماذا نتّهم؟

إن خطأ بعض الفلاسفة هو أنهم يجعلون من الإنسان فكرة، بينما الإنسان ليس فكرة، بل مثل يجب تحقيقه. فهو الذي ينجب الأفكار، ويطبّقها ويصلحها.

للعالم الثالث مطامح جسّدتها، في الأمس، جبهات التحرير الوطنية في بلدان متعددة، وتجسّدها اليوم أحزاب ونقابات ستسطع كشرارات تتطاير من كل الجوانب.

كيف يمكن تصنيف هذه المطامح واختيار البعض منها في وقت يزداد فيه **الآخر**، يوماً بعد يوم، غرقاً في فوضى سيكولوجية وأخلاقية أصبح معها مجموع العلاقات الإنسانية مختلّة؟

لعلّ تحدي العالم الثالث سيصبح، عما قريب، الحافز الضروري لاستشارات وحوارات جديدة وعادلة تجبر الوجود الإنساني العالمي على كراهية كل ما يشتمّ منه روائح الحروب النتنة.

يعيش الغرب عراكاً داخل عالم لم تعد خُطَط النمو فيه ملائمة للواقع. لكن الكبرياء ومصالح الأقليات المسيطرة تعوقه عن أن يرى ما في تلك الخُطط من أضرار، ويجعله يتوغل في المزاحمات «الحرة» العمياء الضارية، عاجزاً عن أن يستخلص العبرة من فشل الخطط الاصطلاحية التي فرضها على نفسه والتي لا يألو جهداً (دون بصيرة) في أن يفرضها على الآخرين كي يقوّي غرقهم في التخلف.

لنتأمل، فيما يلي، واحداً من المعطيات العددية الذي يعبّر عن عمق المأساة، التي يمكن أن نعنونها بـ : «المساعدة المثقلة بالديون». إنها عملية مربحة، بالنسبة إلى الغرب، كما هو معروف. إن الغرب يهب ويربح. إنه «المستفيد» الفعلي، وبقدر ما يقترض الثالثيون بقدر ما يزدادون فقراً. فمنذ سنة ١٩٦٠، لم يتوقف الدَين العمومي الخارجي لبلدان القارات الثلاث عن «النمو»، من سيىء إلى أسوأ. فمن ١٤ بالمئة، وصل سنة ١٩٦٩ إلى ما يقدر بـ ٥٩ ملياراً[١٥].

كيف يمكن البلدان الثالثية أن تسدد هذه الديون؟

باقتراضات أخرى من الأجنبي الذي هو في الوقت نفسه الدائن...؟

لكن، هل سيقبل تقديم قروض أخرى للمدين نفسه؟

سيقبل، بكل تأكيد! فمردودية هذه اللعبة مهمة بالنسبة إليه. إن الثالثيين يدفعون كل

---

(١٥) إن الدين الخارجي لتركيا الذي بلغ ١,٦ مليار في أواخر عام ١٩٦٤، انتقل إلى ٣,٤ مليار في أيلول /سبتمبر ١٩٧٠ دون أن يُسجَّل أي نمو في الانتاج.

سنـة أموالاً طـائلة تسديـداً للديون وللفـوائد المـترتبة عليهـا مما يستنـزف ميزانيتهم، ويخصّب اقتصاد المُقْرِضين.

إن المعدل السنوي لما أدّاه العالم الثالث من ديون عمومية خارجية في فترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٧٢ يساوي ٩ بالمئة. «وقد انتقل نصيب ما تستفيده هذه البلدان من التـدفقات المـالية المحض، من ٣٩ بالمئة، عام ١٩٦٥، إلى ٤٩ بالمئة، عام ١٩٦٩»[١٦].

أثناء زيارة السيد ديفيد نيوسون (David Newson) معاون وزير الخـارجية للمغـرب في ١٣ نيسان /أبريـل ١٩٧٢ قام بـالاطلاع، مـع بعض المسؤولين عن الاقتصـاد المغربي، عـلى ملف المساعدة المالية التي تقـدمها الـولايات المتحـدة إلى الامبراطـورية الشريفيـة، فلاحظ أن تلك المسـاعدة تسجـل ارتفاعـاً كبيـراً. فمن ٢٧ مليـون دولار سنـة ١٩٦٧ ارتفعت إلى ٥٢ مليون سنة ١٩٧٠ (بغضّ النظر عن الهبات). ما هي النتائج التي تمخضت عن هذا الوضع؟

سجّـل الميزان التجـاري المغربي، سنـة ١٩٧١، عجزاً يقـدر بـ ٤٣ بـالمئـة من مجمـوع الرصيد. وبالإضافة إلى أن ما يصدّره المغرب نحو الولايـات المتحدة، لا يتجـاوز ١,٤ بالمئة من مجموع صادراته، يسجل ميزانه التجاري الخارجي عجزاً يقدر بالنسبة إلى فـرنسا بـ ١٦٥ مليـون درهم[١٧]، وبـ ١٦٣,٢ مليون درهم في معـاملاتـه مع إيـطاليـا وبـريـطانيـا العـظمى والجمهورية الفدارلية الألمانية، وأخيراً بـ ٥٢,٩ مليون درهم بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي.

يبـالغ بعض المحلّلين الاقتصـاديين والسيـاسيين في إسـداء الوعظ والإرشـاد، عسـانـا نـطمئن، فيدّعـون أن هذه الأوضـاع ستتغير «قـريباً» وأن كـل شيء سيتحسن بفضل التقـدم الحالي للعلم والتقانة، ويمكن أن نعلّق آمالاً كبيرة على الآلات والكمبيوتر، لكن الواقع يؤكـد أنه، مهما كانت قدرة الكمبيوتر ودقتـه، يبقى في مستوى المعـطيات والـبرامج التي تُخـطط له. وإن المخـططين وأبطال الاقتصـاد الحر أنفسهم متفقـون على أن تحسـين المردوديـة عن طـريق الآلية لن يحسم المضار التي تشكو منها الإنسـانية في عصر بـلا طعم، يضع إنسـانية الإنسـان نفسه موضع تساؤل. فالمبادلات العالمية، في مختلف الميادين، تشكو من وطـأة عدم التـوازن. ولقد استفسرت جميع أنظمة الغرب فظهر بعضها أبكم، واعـترف بعضها الآخـر بأنـه أعطى أحسن ما لديه من أنماط العلاج حتى أصابه الإفلاس، أو هو في طريق ذلك (كالاشـتراكية في بولندا ويوغوسلافيا)

فما هي وصفات العلاج المقترح؟

الجـواب واضح: ضرورة الالـتزام بـ «الاقتصاد الحـر»، يعني الالتزام بنسق المبـادلات التي تفـترض حريـة «تحرريـة»، حريـة أنظمـة المزاحمـات التي تخص حجة الأقـوى بالأسبقيـة

---

(١٦) *Le Monde*, 11/4/1972, p.21, col.2.

(١٧) يساوي الدرهم حوالى فرنك فرنسي.

وتجعلها المتفوقة دائماً، وليس بخافٍ أن قوة الأقوى مُتَأتية من القوة العسكرية والصناعية والتقنية، لا الإنسانية.

* * *

إن أمثال هذه المواقف والقرارات يقلق ويدهش. ويكفي أن نتأمل تجربة تركيا «الكمالية» التي اختارت، منذ ثلاثة أرباع القرن تقريباً، الاندماج التام في الغرب (١٩٢٠) فجاءت النتائج مخيبة لكل الآمال. لقد أصبحت تركيا اليوم تشبه ما يحكى عن الحيوان الصَّغير الذي بتوفره، في الوقت نفسه، على أرجل وأجنحة لم يعد يعرف إلى أي صنف من الحيوان ينتمي: أطائر هو أم فأر؟

ومما يؤسف له، هو أن تركيا ليست مثلاً فريداً من نوعه! فأمثال تركيا دول كثيرة، وكلها تعاني مأساة التبعية التي تبعد عن الذات، ولا تضمن أي التحام بالنموذج المرغوب فيه.

إن المقايضة بالهوية مقابل شبح مغازل لن تقضي على التخلف. فكما قال الوزير التركي (م. أ. كراسمنغو M.A Karasmanghu)، يلزم تركيا ٢٣٥٩ سنة لتصبح في مستوى بلدان السوق الأوروبية المشتركة، وان هذه البلدان نفسها متخلفة بالنسبة إلى الولايات المتحدة («**التحدي الأمريكي**»).

ألم تصبح المسافة التي تفصل البلدان المتخلفة عن الغرب مهولة؟ فما بالك في ما سيكون عليه الغد عندما يُحقق التطور الغربي الرقم القياسي في السرعة؟

* * *

تعاني جميع بلدان العالم الثالث تأخراً كبيراً في كثير من الميادين يستحيل أن تتغلب عليه إذا استمرت في مخططاتها الراهنة. فلنأخذ، مثلاً، ميدان الإعلام والثقافة. يثبت الدليل الإحصائي لليونسكو، في نشراته، أرقاماً تشهد بفظاعة هذا التأخر. لقد سجلت السنة الدولية للكتاب سنة ١٩٧٢ نمواً كبيراً في الإنتاج العالمي للكتب والكراسات إذ ارتفع عدد العناوين الجديدة، خلال الفترة ما بين ١٩٥٤ و١٩٦٩، من ٢٨٥,٠٠٠ إلى ٤٩٦,٠٠٠.

فما هو نصيب العالم الثالث من ذلك الانتاج؟

يُقدر عدد العناوين، بالنسبة إلى كُل مليون من السكان، بـ:

- إفريقيا : ٢٣
- أمريكا الجنوبية : ٦٤
- آسيا : ٥٠

إن مقارنة هذه الأرقام بما سجلته بعض البلدان المتقدمة تعطي دلالة واضحة على مدى التخلف وعمقه:

- أمريكا الشمالية : ٢٢٦
- أوروبا : ٤٨٩
- الاتحاد السوفياتي : ٣١٣[١٨].

وإذا ما ألقينا نظرة على الانتاج الصحفي فإننا نلاحظ أنه في سنة ١٩٥٩ كان يوجد في العالم ٧٣٥٠ صحيفة تطبع جميعاً ٢٧٥ مليون نسخة، يعني ١٢٢ صحيفة لكل ألف نسمة، وبعد مرور عشر سنوات، أي في سنة ١٩٦٩، بلغ عدد الصحف ٧٦٨٠ يُطبع منها ٣٦٥ مليون نسخة، يعني ١٣٠ صحيفة لكل ألف نسمة.

ما هو نصيب العالم الثالث من هذه الزيادة؟

	١٩٦٥	١٩٦٩
أمريكا اللاتينية	١٠٦٥	١٠٨٥
شرق آسيا	١٢٨٠	٣٦٠
جنوب آسيا	١٣٠٠	١٦٠٠

وسجل في افريقيا انخفاض يُقدّر بـ ١٠ بالمئة. بعدما كانت سنة ١٩٥٩ تصدر ٢٢٠ صحيفة أصبحت تصدر ٢١٠ صحف، سنة ١٩٦٩.

أما الإنتاج الصحفي في الغرب فقد سجل:

	١٩٥٩	١٩٦٩
أمريكا الشمالية	١٨٦٥	١٨٨٠
أوروبا	٢٠٢٠	١٨٠٠
الاتحاد السوفياتي	٥٠٠	٦٣٠

إن التخلف لا يظهر فحسب في سوء التغذية والاستهلاك المحدود جداً للآلات والخدمات، ولكن يبدو، كذلك، في نقصان استهلاك الورق. فبينما يستهلك كل مواطن في أمريكا الشمالية ٤٢ كغم من الورق، لا يتجاوز استهلاك المواطن الافريقي ٠,٦ كغم (نذكر بأن معدل الاستهلاك العالمي لكل فرد يبلغ حوالى ٧,١ كغم):

(١٨) نتعرض هنا للإتحاد السوفياتي بصفة استثنائية، لأننا في هذا البحث اخترنا، عن قصد، تركيز جهودنا على علاقات العالم الثالث بالغرب (غرب المؤسسات الحرة)، تاركين إلى مناسبات أخرى الحديث عن علاقات العالم الثالث مع الدول الاشتراكية.

أوروبا	:	١٢,٦ كغم
أمريكا اللاتينية	:	٣,٦ كغم
شرق آسيا	:	١١,٤ كغم
جنوب آسيا	:	٠,٦ كغم

* * *

أمام هذه المعطيات المفزعة، ماذا يمكن أن تفعل لجنة الأوصياء، أو من يظنون أنفسهم أوصياء على العالم؟

لقد تصدى روبن كلارك (R. Clarke)، المختص في القضايا العلمية والعسكرية، للإجابة عن ذلك في كتابه **السباق إلى الموت حيث يحلل تقنوقراطية الحرب**[١٩].

يؤكد كلارك أن نسبة واحد من كل خمسة علماء أو تقنيين في العالم يشتغل، حالياً، من أجل الحرب. وهو يتنبأ بأن الميزانيات العسكرية ستبلغ، في نهاية هذا القرن، ما يعادل مجموع الانتاج الخام العالمي ليومنا هذا. كما يحلل بكيفية دقيقة، الحصيلة المأساوية لوسائل الإبادة التي يتوفر عليها سادة كبار الاقطاعية العصرية. فخلال أوائل هذا القرن، لقي تسعون، من كل ألف شخص، حتفهم في الحرب، أو من جراء عواقبها المباشرة، مقابل ١٥ فحسب خلال القرن التاسع عشر.

ولا تتلخص المأساة في هذا المشهد وحده، بل نجد لها وجوهاً أخرى لا تقلّ حدة. فمنذ التوقيع على معاهدة حظر التجارب النووية، سنة ١٩٦٣، لم ينقص عدد هذه التجارب، بل تزايد.

من يقترح طريقاً أفضل لهذا السفر نحو موت مكيف يصوره الغرب، والتزم به في هذا القرن، قرن التقدم والرخاء اللامنتهي؟

إنه كلارك أيضاً الذي يؤكد «أن عدد ضحايا تقنوقراطية الحرب الذين سيلقون حتفهم، من جراء الحروب، خلال الخمسين سنة القادمة، سيبلغ ٤٠٠ مليون شخص، أي ما يعادل ١٠ بالمئة من سكان العالم! . . .»، هذا إذا استمر العالم، واستمر القوم في غيهم وغباوتهم.

* * *

رغم هذا المنظار القاتم، يستمر الغرب في تخدير الشعوب بالكلام المعسول المنمّق لتمديد خضوعها وصبرها، كما لو أن الغد لن تتجاوزه الظروف.

* * *

(١٩) Robin Clarke, *La Course à la mort, ou la technocratie de la guerre,* traduit de l'Anglais par George Renard (Paris: Seuil, c1972).

بعد التحدي الأمريكي، والتحدي الياباني، والتحدي الأوروبي، يشهر الثالثيون تحديهم في وجه العالم أجمع بحضورهم المكثف، وبالصورة المشوهة التي يعكسونها لوجوه السادة المسيطرين وقد أزيحت عنها كل الأقنعة. يتحدى الثالثيون الغرب علهم يحفزونه على استعادة ضميره. فعليه أن يعفيهم، مقابل هذه الخدمة التي يسدونها إليه، من عبادة الأصنام والانجراف مع التبعية العمياء.

إن الثالثيين «يتغرَّبون» قهراً، بغيظ وبتحدٍّ، لا اختياراً لمثل أعلى يخططه الغرب ويحياه. فشخصيات مثل ألبير أينتشتاين وبرتراند راسل وجان بول سارتر اليوم، وباستور وواشنطن أمس، لا يجسدون النموذج المثالي للغرب. إنهم لا يزيدون على كونهم غربيين يقدمون شهادة على عصرنا، عصر التبعية والهيمنة والاستلاب. ويظل الذين نصّبوا أنفسهم أوصياء على عالم اليوم هم وحدهم الذين يتخذون القرارات ويفرضون على الجميع استراتيجياتهم وعواطفهم وأذواقهم وقلقهم وعُصابهم وتوترهم، علاوة على حروبهم. إنهم يُخضعون القيم الأخلاقية للقيم المالية، كما يجعلون حياة شعوب العالم الثالث وموتها رهناً بتصورهم لمصالحهم الخاصة. وبذلك يحتكرون سلطة التأثير والهيمنة في كل الميادين:

«إذا كانت الولايات المتحدة قد خدعت الملايين من الأشخاص الذين وضعوا فينا ثقتهم، أيام حرب الفيتنام، فإن ذلك يعتبر تراجعاً عن قيمنا الأخلاقية، وتنازلاً عن دورنا القيادي بين الأمم، وسيكون دعوة تدفع القوي إلى أن يجعل من الضعيف فريسة له في العالم أجمع»[٢٠].

هكذا قد يصبح الأوصياء، بالرغم من نيتهم الحسنة، غير واقعيين ولا واعين الأحكام التي يصدرونها على الآخرين من خلال سلاسل الألفاظ والصور الجاهزة، يُـذَوِّتون هذه الأحكام إلى درجة أنهم يصبحون مستعبدين لها. فمن كثرة ما خُدِّر الثالثيون بالوعظ والإرشاد انتهى المطاف بالمخدِّرين فأصبحوا، هم أنفسهم، ضحية للعبة. إن الغرب لا يسمح أبداً للثالثيين بأن يعوا مطامحهم وإمكاناتهم الشخصية فيعرفوها بأنفسهم، طبقاً لخاصياتهم، بل يفرض عليهم أن يكونوا طبقاً للصورة التي يريدها لهم. لكن الثالثيين، رغم المقادير المرتفعة من المخدرات، لا يفقدون القدرة على رد الفعل. إنهم يقاومون، في مواجهتهم المثالية الزائفة، كل ما يجعلهم خصياناً في عالم يتواجد فيه الجور والجوع والتفكك، مع التبذير والرخاء والأنانية. فانغلاق الغرب داخل ثقافته جعله عاجزاً عن فهم ثقافات الآخرين. من ثمَّ أخذ يحتكر كل شيء، بما في ذلك الفكر والقيم، ويصدنا نحن الثالثيين، عن أصالتنا، ويجتثنا ثقافياً تجثيثاً يدمر هويتنا.

* * *

لفضح هذا التدمير الواضح المخترق لكل القوانين، والتشهير به، فتح بعض المفكرين الغربيين ملف الاتهامات الموجهة إلى الغرب. هكذا تحطم قناع المثالية، وأخذ الغرب يفقد

---

(٢٠) انظر خطاب الرئيس نيكسون، يوم ٢٧ نيسان /أبريل ١٩٧٢ حول الحرب في فيتنام.

قيمته. وها هو يعاني أزمة البحث عن نموذج آخر. فعندما تفقد المثل صلاحياتها، يبدأ عصر الفوضى الأخلاقية.

أما العالم الثالث، فإن فقدانه قيمة جعله يدور حول نفسه، **يحصي حاجاته وطموحاته، ويصنفها حسب الأولويات. إن حاجته الملحة الأولى هي أن يتغير دون أن يتنكر لنفسه، أي أن يقتبس من الغرب ما يُحسِّن أوضاعه المادية، دون أن يتنازل عن روحه في هذا الرهان.** فلا شيء يجبره على تبني المزاحمة الحرة، هذه الآلة العتيدة الجهنمية التي تتدرج بالمتزاحمين إلى أن تلقي بهم في متاهة الاحتكار والحروب الطاحنة. ومما لا شك فيه، أن المزاحمة الحرة قد أغنت الطبقات المسيرة في الغرب. ولكن دوام رخاء هذه الطبقات رهن بمدى استغلال بعض الفئات المجتمعية من بين المواطنين في الداخل والمتخلفين في الخارج. لكن انتظار يقظة الضمير العالمي لم يحُل دون قيام هؤلاء المسحوقين بفضح المخدرين ريثما يعلنها الجميع حرباً شعواء ضد نظام الجور، رغبة في أنسنة الإنسان والعالم من جديد. فعلى جميع من لديهم إمكانات من ذوي الإرادات الحسنة أن يساهموا في الإنقاذ، وإلا سيخونون الأمانة. وهذا ما فَطِن له مفكرون مرموقون من الغرب.

ليس بإمكان العالم الثالث ككل، أن يماري في مزايا الغرب وقدراته. إلا أن من حقه بل من واجبه، أن يضع مشكلة النمو في علاقته بالأسس الأخلاقية، والثقافية. فمن الضروري، أن يقبر عالم اليوم، إرادة بناء عالم ، للغد، جديد بإنسية جديدة، وإرادة القيام بتغيير للعالم، يتغير معه الإنسان في شموليته الأصيلة.

* * *

لنصِح! لنزعق!

فمن لا يقول أي شيء يقبل كل شيء.

بالفعل، إننا نصيح ونزعق ونحن نمارس لعبة التطور داخل الحاضر الغربي. نتردد على جامعات الوصي، ونتبنى فكره التنظيمي، ونتهيأ لكي نتشرب ثقافته وتقنياته وقيمه في التنظيم والدقة! ولكن، سنظل واعين ويقظين. إن الأمر بالنسبة إلينا يتعلق بالتكيّف مع الحاضر، عسانا نتمكن من صنع الغد، وما بعد الغد، حسب تصوراتنا ومقاييسنا. ولن نحقق ذلك إلا حينما يبلغ تطورنا مستوى يسمح بتفجير ظاهرات تقنية نستطيع التحكم فيها إنسانياً. فمن المُلاحظ أنه ليست للغرب نفسه أية ضمانة في أنه سيحتكر الغد وما بعد الغد. قد يستطيع، لوقت لا ندري مداه، الاستمرار في السيطرة على بضائع الاستهلاك. ولكن لن تكون له دائماً وأبداً، المبادرة في خلق القيم والفكرولوجيات الجديدة.

* * *

لا خلاف بين الجميع حول ملف الاتهام وأسباب أزمة القيم العالمية. بيد أن الناس ـ كما يقول جان بول سارتر ـ «لئام» يتجنبون الصدق عن سوء نية.

فمن سيحكم عليهم، بعد أن يحاكمهم؟

ومن سيعيد تربيتهم؟

«الآخرون»؟

ليس الآخرون «شيئاً» سوى صور طبق الأصل، خرجت من السهاد نفسه، ومع ذلك، فليعلن التحدي أقلهم خَمَجاً!

إذا أخذنا بعين الاعتبار القرابة التي تجمع بين التلقائية والبراءة في صفائها الأصيل وعلى المستوى العاري، سيبدو الثالثيون هم الأكثر «صدقاً» (authentiques). وحيث أنهم لم يتقنوا بعد تقنية اللعبة، فإنهم يعتلون خشبة المسرح دون قناع.

فهل سيجعلهم ذلك ينتمون إلى طائفة الممثلين الرديئة؟

ليكن! لكن الخطر كل الخطر هو أن الممثل الرديء الذي لا يحسن القيام بدوره قد يخرب الديكور، ويفسد الأضواء، وحتى المسرحية نفسها! فلكي يستطيع الممثل الرديء الوقوف على خشبة المسرح، لا بد أن يسكنه الشيطان، وأن يكون قادراً على الإثارة طبيعياً. ومع ذلك، فعلى الثالثي أن يمارس دوره فوق الخشبة.

إن التحدي خطوة في طريق الإنقاذ. إنه يثير الانتباه إلى ما هو مزيف من أوراق اللعبة.

* * *

إذن، فلنغامر جميعاً في اللعبة، وجميعاً دون قناع!...

«إن الحقيقة تفرض نفسها. فالأرض أرض لأنني ألمسها بيدي، وأسمي الرمل رملاً لأنه يمر بين يدي كما تمر السماء في عيني. هنا يكمن دليل الوجود، في هذا الصمت الذي يسبق ويأتي بعد المرور»[٢١].

خامساً: مسالك هذا البحث

«لم يعد لنا شيء نقوله للشباب»[٢٢].

دعت جامعة روما، بمبادرة من الأستاذ بييترو بريني (Pietro Prini)، مجموعة من المفكرين لملتقى عالمي حول المشاكل التي يضعها عالم الغد. لكن أجّل موعد هذا الملتقى

---

(٢١) من الديوان الشعري لـ:

Fernand Verhesen, *Franchir la nuit* (Bruxelles: Le Cormeir, 1970), p.85.

(٢٢) Jean - Paul Sartre, «Préface,» dans: Paul Nizan, *Aden-Arabie*, nouv. éd. présentée par Jean - Paul Sartre, les cahiers libres; no.8 (Paris: Maspéro, 1960).

الذي كان قد حدد في ربيع ١٩٦٩ بالعاصمة الإيطالية إلى موعد آخر، وفي مكان آخر، لأن بعض الشخصيات، أمثال يورغن مولتمان (Jurgen Moltman)، (ألمانيا)، ورتشارد هير (Richard Hare) (أكسفورد)، وغريغوري زيلبوزغ (Gregory Zulboorg) (الولايات المتحدة الأمريكية) والباريسيين، غابرييل مارسيل (Gabriel Marcel)، جان فوراستييه (Jean Fourastier)، وجان بول سارتر (J.P. Sartre). . . فضلوا ألّا يواجهوا الجماهير الطلابية الإيطالية التي كانت قد شنت في تلك الفترة، مظاهرات صاخبة (ثورة ثقافية صغيرة، ولكنها عنيفة وضعت محل تساؤل كبار أساتذة الفكر في الغرب).

***

قبل هذا التأجيل كنا قد حررنا نصاً وبعثناه في الوقت المحدد: «عالم الغد»، نثبته هنا في الصفحات الموالية لهذا الفصل. فلما وصلنا إلى بيروز (Perouse) حيث انعقدت الندوة أيلول /سبتمبر ١٩٦٩، لاحظنا أن زملاءنا المشاركين قد هيأوا عروضاً أقصر من عرضنا. ففكّرنا في تقليص النص. لكن ظهر أن تلك العملية قد تخلّ به وتعرّضه لكثير من الثغرات والبتر. لذلك حررنا نصاً آخر يستجيب للوقت المحدد للعرض وللمناقشة (سنثبته فيما يلي)، فكانت النتيجة أن جاء النصان معاً يكمل أحدهما الآخر، فكراً وتحليلاً. هكذا أمكن ضمهما فكونا، بالفعل، القسم الثاني من هذا الكتاب[٢٣].

لقد احتفظ النصان، على العموم، بصيغتهما الأصلية، باستثناء بعض التحليلات والتعليقات والسرود التي بدا لنا أن إضافتها ضرورية، على أن هذه الإضافات لا تشمل كل ما جدّ في الميدان. فمنذ ندوة بيروز، تغيّر العديد من المعطيات المتعلقة بالظروف الحالية. ورغم ذلك، فإن قيمة الأوراق التي سبق تحريرها تكمن في كونها تظل شاهداً على الفترة التاريخية التي حررت فيها وثيقة للتأمل في حياة اليوم والغد.

يتضمن القسم الثالث من هذا الكتاب فصلين، أولهما يعالج عصر «الصدمة»، وقد كان في الأصل محاضرة «ألقيت في الندوة اللبنانية» ببيروت عام ١٩٦٥. ظهر لنا أنه من المفيد أن نضيف إليه نصاً آخر وإن كان أقدم منه إلا أنه ينحو المنحى نفسه، إذ إنه يعمل على استشراف عناصر «من أجل إنسية جديدة».

أما القسم الرابع «فلسفة النمو أو فلسفة الترقية» فيحاول استخلاص متغيرات عالم اليوم. ويأتي القسم الخامس والأخير ليقترح معالم فلسفة غدوية انطلاقاً من مختلف المباحث التي تناولها الكتاب.

***

---

(٢٣) لقد نشرت مجلة بروتنس النصين بالإيطالية. انظر: *Protens*, no.3 (1970).

إن هـدف مباحث الأقسـام الخمسة للكتـاب هو تحـذير الثـالثيين من المتـاهات المـزلقة لمجتمعات الرخاء، وإطلاع الغربيين على بعض الخفايا النفسانية للمتخلفين.

أليس البحث عن النفس، والبحث عن الآخر أفضل خطوة نحو التفاهم المتبادل؟

سيتساءل بعض المتشائمين: أتلك صيغة جديدة لـ «لحوار»!؟

نعم، إنها كذلك...

من شدة ما يُطرق رأس المسمار ينتهي الأمر بإدخاله جيداً في الخشبة.

لنـطرق! لنطرق! لِنَعْبُر الـطرق المسمَّـرة دائـماً! ففي ذلـك نجـاة، شريـطة أن تلتحم المسامير ذات الرؤوس المسطحة بالممشى.

***

يلجأ مؤلف هذا البحث، مضطراً، إلى أن يكرر سرد بعض التفاصيل والأفكار في أكثر من منـاسبة. وهـو إذ يفعل ذلـك عن وعي يشبه ذاك الـذي لا يستطيـع أن يطلق صرخـات النجدة إلا بصوت منخفض، فيجد نفسه مضطراً لأن يعوض ضعف النبرة بالتكـرار والرتـابة عسى أن تصل صرخاته المضغوطة إلى الآذان الشاردة.

نشير كذلـك إلى عيب آخر من عيـوب هذا العـرض، هو أنّ دراستنـا هذه لن تعـالج المواضيع حسب آخر ما استجد في المنطق الغربي ومن منظار ما هو مألوف لدى الغرب، وإنما ستنهج طريقةً هدفها الأساسي الإلحاح على أن عالم الغد سيكـون «مشتركـاً» بين الجميـع (كل أثلاث العالم)، وأن أشكاله، وإن تجلت مغايرة، فإنها ستكون صنيعة تعاون مجموع البشرية.

القسم الاول

عالم الغد



الفصل الأول

بحثاً عن اللعبة والرهان

أولاً: أبْحثٌ في علم المستقبل أم بحث في الحاضر؟

«سعيد من يمرح بالحياة ويجعل الآخرين يمرحون،
وشقي من لا يستفيد منها ولا يجعل أحداً يستفيد»(*).

يُعرَّفُ الإنسان بأنه حيوان ناطق يتكلم ليبلغ ما يشعر به وليتواصل. وتزداد حاجته إلى التواصل بمقدار ما يزداد نمو وعيه. هكذا أخذت الصحافة ترمي لأن تصبح علم إعلام، كما يسعى التكوين لأن يتقدم من دون انقطاع. لكن، نلاحظ أن «الصحافي ناسج الحوار المستمر» يستقي دائماً خيوط نسيجه من الماضي، وخاصة من الحاضر، وقلما يولي المستقبل نفس الاستعجال والحدة. وذاك ما لا يستجيب لواقع الإنسان الذي يعيش بالمشاريع، وفي المشاريع، ومن أجل المشاريع، منشغلاً كلياً بهموم مستقبله. لقد أصبحت الحياة العصرية تخضع أكثر فأكثر للبرمجة، وتتطور في قطاعات نشاط مخطط. لذلك شرع يحاول إنشاء علم آخر، إلى جانب علوم الإعلام وبالترابط معها، «إنه علم المستقبل».

إن إنشاء هذا العلم أمر طبيعي بالنسبة إلى الشعوب التي «فهمت» عصرها وأشبعت حاجاتها. وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى العالم الثالث الذي لم يدخل بعد العالم الحالي، والذي ما يزال يعيش على هامش القرن العشرين وما أنجزه من تقدم. فذاك شيء لا يهمه إلا بشكل غير مباشر.

إن الغرب يتطور، يقوم بتركيب المعطيات ثم يفككها، ويعيد نسيج هذا القرن دون

(*) محمد أرودكي (Mohammad Arroudki)، شاعر فارسي، ٨٨٢ - ٩٤٠.

أن يفكر في ما قد ينقذ أوضاع العالم الثالث. إن حاجة الثالثيين، من ثمة، ملحة إلى إنشاء علم يهتم أساساً بـ «الحاضر». إن «المستقبل»، و«الحضارة»، و«التقدم»... بالنسبة إليهم عوالم غامضة لا تُدرك، بل هي منذر رهيب يهدد بدل أن يبعث إلى حد ما الأمل. لقد تخلّص الغرب من طيف الفقر الجماعي وأوقف بقوة، استغلال الإنسان للإنسان... ولكن حقق ذلك في بلدانه وبالنسبة إلى مواطنيه فحسب (ويمكن أن نضيف: لبعض المواطنين وحسب!). بناء على ذلك، فإن دور الصحافي (في الصحافة المكتوبة والمنطوقة) يكمن في توجيه الرأي العام. وقد أصبح لهذا الدور أهمية كبرى في المجتمعات المعاصرة لدرجة أن كل دولة أنشأت وزارة خاصة بالإعلام تتحمل مسؤولية استقطاب وتوزيع كل أنواع الأخبار والمعلومات. ومهمة هذه الوزارة تتركز أساساً على إنتاج المعلومات وتبليغها، بينما تقتصر مهمة وزارة البريد على إيصال وضمان تبادل المراسلات المكتوبة، والمواصلات السلكية واللاسلكية، فدورها كدور وزارة النقل: ضمان تواصل الناس بعضهم ببعض رغم المسافات. هكذا تتميز وزارة الأعلام بِدَوْر مزدوج: إنها لا تكتفي بنقل ما هو قابل للتبليغ، ولكنها تساهم أيضاً في إنتاجه. فهي إذن تعلّم. ومن هنا قرابتها لوزارة التربية الوطنية: تلقين وتربية وإيصال للمعرفة، يعني جعل الآخر يساهم في البحث وفي الحياة وتكوين الرأي العام[1].

لكن، إذا كان من واجب رجال الصحافة والتعليم أن يعملوا، مبدئياً، على نشر المعارف وإزاحة الخاطىء منها، فإنهم قد يساهمون في تشويه المعلومات ونشرها غير صحيحة، فيُضِلّون «الرأي» العام. هكذا لا تخلو مهمتهم من خطورة. إن للتدريس وللصحافة مسؤولية والتزاماً. لذلك، إن أخبار الآخرين وتعليمهم يفرضان على من يتولون المهمة أن يكونوا على خبرة بكل الماجريات وأن تواكب معلوماتهم آخر المستجدات.

فكيف يمكن مواكبة ما يجدّ في وقت تتراكم فيه المعارف بشكل رهيب ويتحول فيه كل شيء في أقل من رمشة عين؟ متى يحصل الاقتناع والتأكد بأن لا تناقض بين وجود ثقافة عامة وبين تعدد الاختصاصات وأصناف المعرفة تعدداً يتشعب أكثر فأكثر؟ مثلاً، بالنسبة إلى ميدان الاقتصاد، ليس هناك «عالم الاقتصاد» بالمعنى الدقيق الجامع المانع، ولكن هناك الكثير من المختصين، هذا مختص في الاقتصاد القروي، وذاك في الإصلاح الزراعي، والآخر في الأنظمة الرأسمالية... الخ كذلك الشأن بالنسبة إلى الصحافة، فهناك الصحافة القانونية، والصحافة العلمية، وصحافة الإعلام العام أو السياسة الخارجية، والاقتصاد... الخ. أضف إلى ذلك أن جميع هذه الاختصاصات المختلفة في تطور مستمر، وجميعها تتمحور حول الإنسان الذي هو نفسه في صيرورة تعرف اليوم سرعة فائقة لدرجة أن البشرية لم تعد تستطيع مواكبة التاريخ. فرغم أنها تبذل طاقات جمة سيراً وراء الأحداث، يبرز الإنسان الآلي سيداً مسيطراً في العالم.

هذا الوضع الجديد يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان الإنسان المعاصر سيظل «إنسان»

---

(١) في العربية يعطي نفس الجذر (ع.ل.م.) عَلَّم، عِلْم، عَلَم، عُلوم، إعلام، وتعليم.

التعريفات والمقاييس الكلاسيكية المعهودة، أم يجب أن يُبحث له عن تعريف آخر.

إن الإشكالية المطروحة تفرض علينا أن نتأمل جميعاً، انطلاقاً من هذا المنظار الذي يتمحور حول الإنسان ويرمي إلى استشراف مستقبله، وأن ينصبّ تأملنا على معطيات مقتبسة من التاريخ في صيرورته، وعلى معطيات مستقاة من حياة العالم الثالث في علاقاته مع الغرب.

إن فحص العالم الثالث لا يفرض أن تخلع عنه ملابسه لأنه عارٍ لا ملابس له. فلن يجد المنظرون للمستقبل صعوبة في تشخيص أمراضه والإحاطة بها. وليس للثالثيين أي اختصاص ولا يتوفرون على اختصاصيين موثوق بهم، إذ كيف يمكن أن يتخصص في ميدان غفل لم يولد بعد؟ لنتأمل، إذن، مع روفيل (Revel) هذه القاعدة التربوية الأساسية: «إن قيمة المختص وثراءه يحددان بمستوى التعليم والتربية العامّة اللذين ينطلق منهما الاختصاص»[٢].

يضيف روفيل مستهزئاً:

«إن الطفل الذي دخل المنجم، في القرن التاسع عشر، ولما يتجاوز عمره سبع سنوات، كان مختصاً بكيفية ما»[٣].

كان الاختصاص الحق دائماً الوسيلة الوحيدة لفهم ما قد تكونه الثقافة العامة في أقصى حدودها. لقد أجمع رجال التربية المرموقون، ابتداء من أفلاطون إلى ماريا مونتيسوري، مروراً بابن خلدون وجان جاك روسو، على أن من البداهة أن يسير فن التعليم حسب مراحل متتالية. فإذا كان التعليم الابتدائي يُكَوِّن، فان الثانوي يلقن ويعلّم كيفية التأمل، أما الجامعات ففيها يبدأ التخصص.

وضع إمانويل كانط ثلاثة أسئلة يمكن أن تتخذ مقدمة ومنطلقاً لكل بيداغوجية ولكل بحث، في أي ميدان كان:

- ماذا يجب أن أعتقد؟
- ماذا يجب أن أفعل؟
- أين يجب أن أقف؟

تلازم هذه الأسئلة الثلاثة مجموع النشاطات الانسانية وتهتم بحدود المعتقدات والأفعال (الفكر والفعل والإيمان والعمل). فالقيام بأي عمل واعٍ يفترض التساؤل مسبقاً عن معناه وعن الغاية المتوخاة منه. ذاك ما يُدخل عقلانية ناجعة على القرارات وعلى النتائج الناجمة عنها.

إن النشاط الممتاز هو النشاط الذي يساهم في قيام نموذج جديد للإنسان، أو على

---

(٢) Jean François Revel, *La Cabale des dévots* (Paris: J.J. Pauvert, 1965).

(٣) المصدر نفسه، ص ٢١١.

الأصح، هو الذي يساهم في بناء وتجلية مجتمع أفضل في المستقبل. لكن هذا يطرح مشكلتين:

- **من أي شيء سيتكون الغد؟**
- **إلى أي صنف من البشر سيحتاج مجتمع الغد؟**

في نظر ديكارت: «يكفي أن يكون تقييم الوضع والحكم جيداً ليكون الفعل جيداً»[4]. في حين يرى برانشفيك أن الوعي من دون علم خراب للروح. وهذا عكس ما كان يُردَّد دائماً.

* * *

هناك أحداث تزعج الفهم، وتبلبل الضمير، وتزدري العلم. إليك لائحة أولى منها.

- حسب تقرير المنظمة العالمية لحماية الطفولة، إن ٤٠ بالمئة من سكان العالم تقل أعمارهم عن ١٥ سنة، ويعيش ثلثهم في أكواخ، ويشكو نصفهم من سوء التغذية.

- ويتنبأ بأن في سنة ١٩٨٠ سيعرف مليار وثلاثمئة مليون طفل، ممن تقل أعمارهم عن ١٥ سنة، سوء التغذية ولن يكون لهم مأوى يفيئون إليه[5].

- من جهة أخرى، هناك ١٠ ملايين طفل يموتون كل يوم، ومليار شخص تعوزهم هذه المادة أو تلك من المواد الضرورية للتغذية.

- وفي نهاية القرن العشرين، يتوقع بأن خمسة أشخاص من ستة سيعرفون المصير نفسه، إذا لم تتغير الأحوال.

- يمكن من الآن تحديد المناطق الجغرافية التي سينتمي إليها هؤلاء الجائعون.

- من الواضح أن العالم ليس على وشك التغيير، بل ستظل الأوضاع على ما هي عليه لمدة طويلة. يكفي أن نتأمل، مثلاً، حالة الدَّيْن العمومي في المغرب. إنه ينمو بشكل مخيف. فبعد أن كان في العام ١٩٦٣، ٢٥٦ مليون دولار، أصبح في العام ١٩٦٩، ٥٥٦ مليون دولار[6].

- إن تنامي المديونية في البلدان الثالثية يخضع لمتطلبات الدول الأجنبية المقرضة. وللخروج من وضعية الإفلاس هذه، يقترض الثالثيون من المصارف (أو البنوك) الأجنبية، وخاصة البنك الدولي، يعني أنهم يطبّقون مبدأ معالجة الداء بالداء.

---

(٤) René Descartes, *Discours de la méthode* (Paris: Gilson; Vrin, 1947), p.28.

(٥) **أعمال اليونسكو**. وانظر أيضاً:

Mohammed Aziz Lahbabi, *Les Années 80 de notre jeunesse* (Casablanca: Editions magrébines, 1970).

(٦) انظر: **نشرة بنك المغرب** (الرباط)، (١٩٧٠).

- ويُلاحظ أن التبذير في كثير من البلدان المصنعة ينتشر، بانتظام مستمر وعلى صعيد واسع. هكذا، فإن حرب الهند الصينية قد كلفت الولايات المتحدة، في فترة ما بين ١٩٥٦ و ١٩٧١، حوالى ٩٦,١٠٠ مليون دولار!...

يمكن ذكر لائحة أخرى للأحداث المزعجة في ما يلي:

- منذ سنة ١٩٥٩، لم تنقطع المجاعة عن الانتشار، في وقت يعرف فيه العالم الثالث تفجّراً ديمغرافياً وتقهقراً في الانتاج.

- وبينما أضحى هذا التفجر الديمغرافي مأساة تتجاوز العالم الثالث، جندت بعض الجماعات كل قواها للمحافظة على الحواجز التي تمنع قيام «الثورة الخضراء».

- في تموز/ يوليو ١٩٧١ بلغت نسبة تزايد السكان في المغرب ٢,٩ بالمئة، كما سجل نمو مستمر في الهجرات القروية نحو المدن (يقدَّر عدد سكان الدار البيضاء بحوالى مليون وخمسمئة نسمة، أي ما يعادل واحداً على اثني عشر من مجموع سكان المغرب!) فارتفعت نسبة سكان المدن إلى ٣٥,١ بالمئة بعد أن لم تكن سنة ١٩٦٠، سوى ٢٩,٣ بالمئة[٧].

* * *

- من بين الأحداث المفجعة الأمثلة كثيرة، وعلى رأسها مشكلة استفحال البطالة. ففي الوقت الذي صرفت فيه الدول العظمى، سنة ١٩٧٠، ما يبلغ ٢٠٤ مليارات دولار للتسلح، أحصي ٢٢٥ مليون عاطل عن العمل في العالم الثالث، و ٥٦ مليوناً في بلدان مصنعة.

- كما أن التفاوت المتصاعد بين البادية والحاضرة يمثل، هو أيضاً، ظاهرة مقلقة تعم العالم أجمع. فلنقارن هذه الأوضاع بما يُلاحظ في الولايات المتحدة، مثلاً، حيث ثمن الوجبة اليومية التي تخصّصها بعض الأسر لكلابها يكفي لكي يغذي، في العالم الثالث، العديد من أطفال سلالة آدم. من هنا نعي حدة المأساة[٨].

هذه الأحداث بليغة في حد ذاتها. من هنا، يبدو واضحاً أن الفلسفة ليست هي التي تمشي على رأسها، ولكن عالم «رجال الأعمال». يجب إذن أن يقف على رجليه وأن يُمْنَحَ رأساً،

---

(٧) إن المغرب الذي نأخذه كمثال يعتبر، نسبياً، أقل سوء حظ من أغلبية بلدان العالم الثالث. إنه في طليعة البلدان التي هي حقاً في طريق النمو.

(٨) لعل بعض القراء سيندهشون حينما يعلمون أن الأمة التي تسيطر على أكثر الثروات من كل الأصناف، تفتح فجأة عيونها على أكبر فضيحة في التاريخ: إن الولايات المتحدة، التي هي المخزن الأول للمواد الغذائية وللأسلحة في العالم، أحصت عام ١٩٦٢، ٥٥ مليون فقير. للتعرف إلى أسباب هذه الوضعية ومساوئها (الفقر بالنسبة لسير النظام الاقتصادي الأمريكي)، انظر:

J.M. Chevalier, *La Pauverté aux Etats -Unis* (Paris: Presses universitaires de France, [s.a.]).

حيث يحاول المؤلف إدماج مشكل الفقر في التحليل الاقتصادي.

ومن الأفضل أن يكون رأساً متكامل القُدُرات. فالقضاء على الفقر، يتطلب، أولاً، أن يُعاد النظر في أنظمة المزاحمة فتُجعل محل اتهام، وأن يُعْطَى الشغل والنشاطات الاقتصادية معنى جديداً يضع حداً للسعي الجامح وراء الثروات، الثروات في حد ذاتها ومن أجلها. لهذه العبادة، عبادة الثروات، جاذبية شيطانية لا إيثار في معابدها. فالآخر يظل دائماً مجهولاً ومنسياً.

حينما يقع رجال الأعمال في شبكة إلاهة المال يسلمون، دون وعي، جزءاً من ذواتهم لأعمالهم، وتجعلهم إغراءات المزاحمة، التي لا تَنْسى أحداً، يعانون استلاباً. ويظل جواب المزاحمة على سَدَنة تلك الإلاهة، كجواب بينيلوب (Pénelope)[٩]، رفضاً مبهماً دائماً، وجامداً إلى أقصى حد. إن المزاحم يضاعف الجهد ويصارع دون انقطاع. ولكن خيبته الكبيرة تجعله كنسيج بينيلوب لا يعرف نهايته أبداً. يعطي ماكسيم غوركي، من خلال حواره مع أحد كبار الأغنياء الأمريكيين، صورة عن هذه اللهفة العبثية. سأل غوركي الثري قائلاً:

ـ ماذا تفعل بمالك؟

هزّ الملياردير كتفيه، وأدار عينيه، ثم أجاب:

ـ أربح به مالاً.

ـ لماذا؟

ـ لكي أكسب مالاً أكثر. . . !»

أليس لبرودون (Proudhon) الحق في الحديث عن «مملكة الذهب»؟ «إن الذهب هو الطلسم الذي يجمد الحياة في المجتمع، يعقّد المرور والمبادلات، ويقتل الشغل والقروض. إنه يجعل جميع الناس في عبودية متبادلة»[١٠].

ويجيب فورد عن السؤال التالي:

ـ لماذا تنمي مشاريعك دون انقطاع؟

ـ «لأنني لا أعتقد أنني أستطيع أن أتوقف!».

الواقع أن فورد وأمثاله ليسوا إلا كما قال عنهم جان جوريس: «عبيد ثرواتهم»، كما أن الآخرين «عبيد فقرهم». يبدو أن في هذا تشخيصاً لجدلية السيّد والعبد حيث يأخذ المال مكان السيد ويفرض على جميع الناس أن يعترفوا به سيّداً. هذا يعود إلى أن الثورة الرأسمالية التي قامت بجرأة وحماسة تعرف تراجعاً مستمراً أمام الثورة الذهنية، وتُفشل كل محاولة توقظ

---

(٩) زوجة إيريس التي قاومت طيلة غياب زوجها (عشرين سنة) كل محاولة لإجبارها على الزواج، إذ كان جوابها كلما طُلب منها ذلك أنها ستفعل حينما تنتهي من نسج قماشها. وتجنباً للنهاية كانت تحلّ كلّ ليلة ما نسجته طيلة اليوم. فأصبحت بذلك مضرب مثل في الإخلاص لزوجها.

(١٠) Proudhon, *Organisation du crédit*, œuvres complètes (Paris: [s.n., s.a.]), p.113.

الوعي. إن تعاسة الضمير الغربي ستظل نتيجة ضمنية للفوضى التي يسببها الفقر في العالم. فليست المجاعة سوى تعبير بيولوجي عن مرض مجتمعي شخصه الغرب، وباستطاعته أن يعالجه، ولكنه لا يرغب في ذلك، خشية زحزحة قواعد قدسية المال. ألا يُوجد، تحت ظل مملكة المؤسسات الحرة في مجتمعات الرخاء، أكثر من ١٠ ملايين شخص يموتون جوعاً كل يوم؟ إنه وضع فظيع «يوجع القلب»، إذ لم يسبق للبشرية أن عرفت مثله في أية حقبة مضت من تاريخها. لكن «الكبار» لا يريدون المخاطرة بامتيازاتهم، ويفضّلون الإبقاء على الحياة كما هي حالاً. بيد أنه غالباً ما يكون العقاب من المصدر نفسه للجريمة.

إن المزاحمة تؤسس «الاقتصاد الحر» وهي نفسها التي تجعل «الليبرالية» محاصرة حصاراً جهنمياً وحاملة جراثيم الأزمات والقلق.

كان للضريبة الإضافية ١٠ بالمئة التي فرضها البيت الأبيض في ١٥ آب /أغسطس ١٩٧١ على الواردات نتائج سلبية كثيرة. لقد مسّ هذا القرار الذي اتخذه الرئيس نيكسون مباشرة الكنديين الذين هم أقرب جيران الولايات المتحدة، بل هم أنفسهم من أمريكا الشمالية، ويطبقون الليبرالية الاقتصادية. منذ ذلك الحين، أصبحت كندا تُحصي أكثر من ١٠٠ ألف عاطل عن العمل بسبب انخفاض حجم الصادرات نحو ابن العم والجار الأكبر.

إضافة إلى ذلك، إن قرار مستشاري البيت الأبيض لم يكن يرمي إلى توازن ميزان الحسابات الأمريكية فقط، ولكن، أيضاً، إلى الحد من الإنطلاقة الصناعية لكندا واليابان، وغيرهما من البلدان الكبرى المصنّعة والمزاحمة رغم إخلاص هذه البلدان في الدفاع عن «الليبرالية»[11].

ثانياً: تخمينات

«لقد هلكت قرطاج، لأنه حينما وجب تحصين الملاجىء لم تستطع تحمّل سيطرة هنيبعل. وسقطت أثينا لأن أخطاءها تراءت لها لذيذة فلم ترغب في علاجها»[12].

يبدو من الطبيعي أن يضع بعض الغربيين المتخمين بكل مكتسبات القرن العشرين أسئلةً حول «عالم الغد». لكن لن يكون ذلك طبيعياً بالنسبة إلى متخلف لم يدخل العصر الحديث والمعاصر الذي يهمشه أكثر مما يسمح له بالعيش فيه (رغم أنه، جغرافياً وتاريخياً، يُعتبر جزءاً منه) إن نموذج «عالم الغد»، بالنسبة إلى العالم الثالث، هو العالم الماضي، البعيد والقريب، عالم الغرب النموذج.

---

(١١) منذ ذلك الوقت اضطر الرئيس نيكسون إلى أن يتراجع عن قراره، فحذف الضريبة الإضافية لأسباب استراتيجية، واقتصادية وسياسية في الوقت نفسه.

(١٢) Charles Louis de Secondat Montesquieu, *L'Esprit des lois.*

هنا يكمن الالتباس الأول عند المنظّرين للمستقبل. إنهم يتحمسون لعالم لم يحلّ بعد وما تزال ملامحه غير محددة ولا تتراءى إلا من خلال الحاضر المهزوز المنحرف. فمطامحهم لا تتجاوز ظروف القرن العشرين، من حيث الفكر الاستعماري الجديد، والشوفينية واللهف الذي لا يحدّ على الماديات(١٣).

ليس من باب التظاهر بالتواضع أن أعترف بأني من العالم الثالث. وأني لا أجد معايير قد تجمع بيني، أنا المنتمي إلى بلد متخلف، وبين «المستقبليّين» الغربيين الذين يمتازون بثقافة مغايرة لثقافتي، وبتقانة مدهشة، وقدرات مادية تجعلهم «أسياد الطبيعة وممتلكيها»(١٤).

لذا، فإني مهمّش في حضارة التصنيع التي هي منكم ولكم، ودوري فيها دور قرد أو ببغاء.

لكن الغرب يؤدي فدية عن هذه القدرات الكبيرة، وهو قلق كبير. إن الحصر الذي يستحوذ عليه ليس وليد مفاجآت المستقبل فقط، ولكن أيضاً وليد معاناة الحاضر. فما أكثر المرموقين من بين الغربيين الذين لا يرغبون في أن يبقى عالم اليوم كما هو، ويتمنون لو يكون في تغير دائم. ومع ذلك فلا أحد يجرؤ على الإدعاء بأن القرن العشرين ليس أحسن حالاً من القرون المتقدمة!...

معنى هذا أن للغرب تصوراً للمستقبل (أو يجهد نفسه لأن يكون له تصور عنه)، طبقاً لحاضر يرفضه، ولماضٍ أقلّ صلاحية في نظره من هذا الحاضر نفسه. ذلك أن صورة المستقبل تعبّر عن شيء «لم يتم بعد». ومن المحتمل ألا يتم انطلاقاً مما يقع ومما وقع. إنها صورة تكشف عن الكيفية التي يراد بها رفض «ما هو قائم» من أجل «ما سيكون». لكن الالتباس سيبقى دائماً لأن عالم الغد في حاجة إلى بنى وجذور مخالفة لبنى وجذور عالم اليوم، غير العادلة المحدودة الآفاق: فإما بناء يشمل مجموع الشعوب، بالتساوي فتستعيد البشرية أنسنتها، وتتآخى من جديد، وإما بقاء دار لقمان على حالها. إنها طبعاً مخاطرة لا تعززها سوى معرفة ضعيفة ووعي مضطرب بأحوال الثالثيين. فإمّا غدٌ لمجموع البشر، وإمّا طوفان عام وشامل.

* * *

سبق أن سجل القرن السادس عشر قطيعة مع الوحدة الثقافية للعالم المسيحي حيث تفرع عن نمو العلم تأسيس رؤية للعالم لا تخضع لتعاليم الكنيسة، ولم يعد المحور هو الإلهيات ولا الفلسفة المدرسية. أما الربع الأخير للقرن العشرين فقد غيّر المحور انطلاقاً من بنى الحضارة الصناعية، وأصبح العلم والتقنية هما اللذان يمدان التغيير بالرافعات «الفكرولوجية»، من غير أن يعرف لمصلحة من، ولا إلى أي مدى ولا إلى أي عمق. بناء على

---

(١٣) انظر: «خامساً: مسالك هذا البحث،» في مدخل هذا الكتاب.

(١٤) Descartes, *Discours de la méthode*, vol. 6.

ذلك، يبدو جلياً أن العالم الثالث والغرب يسيران في اتجاهين متعارضين، فيظهر أن كل مسالك الحوار بينهما مغلقة. ولن يكون في وسع الثالثيين أن يقاسموا الغرب قلقه لأنه (الغرب) ظل هو نفسه أجنبياً في حضارته. الغربيون حاضرون ولكن دون حضور فعلي ومطمئن. فالحضارة الصناعية تجرفهم بقوة لم تتركهم يستطيعون معها أن يشدوا حبالهم، ولا أن يتحركوا، ولا أن يردّوا الفعل. فهم هنا، لا أكثر. هنا يتساوى العربي مع الثالثين: الملل، الخوف من التلوث، والإرهاب من الجراثيم الفتاكة المتنامية، كمّاً وكيفاً، ومن الإفلاس، ومن البطالة، ومن الاضطرابات العمالية... كل ذلك يهدد الجميع بكامل التساوي، مع فارق: إن الثالثيين يجهلون قلق التخمة، لأنه ميزة من ميزات المتقدمين صناعياً. إنهم لا يتبنون مجموع اهتمامات الغربيين وأزماتهم، ومجموع أزمتهم السياسية والمجتمعية والنفسانية، وباقي ما يقاسونه من مآسٍ.

إن الغربيين لا يستطيعون الرجوع القهقرى، كما لا يستطيع الثالثيون اللحاق بهم ليساهموا في بؤسهم الثقافي والتقني، أو أن يقتحموا معهم الصدمات النفسانية الناتجة عن مجابهة الحاضر، وقد وعوا إفلاسه دون القدرة على تغييره.

ينطق تصور «الغد» مما يشاهد اليوم. وحيث إن العالم الثالث ليس في العير ولا في النفير، بالنسبة إلى الزمن الحاضر، يعيش ليومه دون أفق، ويتحمل حياة ناقصة «الوجود» إذ لا تناط به أية مسؤولية، فالغرب يظل إذن وحده في الحلبة متمتعاً بالحظّ الأوفر والأقوى في تصور الغد. ومع ذلك، فإنه لم يستطع أن يتفهم تحدي التخلف، بل يخلقه ويحتضنه ويقويه بدافع الأنانية الاقتصادية والأنانية السيكولوجية.

ومنذ عام ١٩٤٥، الحروب جميعها تدور رحاها في القارات الثلاث بأسلحة كلها من الأمم الغربية. كما يلاحظ أن المحاربين جميعاً ليسوا متخلفين فقط، ولكنهم فقراء أيضاً. فعوضاً عن أن تصدّر الأمم ذات الصناعة المتقدمة، الأمم «المحسنة» والمحبة للبشرية، المواد الغذائية الأساسية والآلات الضرورية، لحياة البلدان المتخلفة، نراها تغدق عليها الأسلحة المختلفة الأشكال، بسخاء مفرط، وبتسهيلات وديون جمة. هكذا تسيطر الدول الأربع الكبرى في العالم على ٨٧ بالمئة من تجارة المواد الحربية مع بلدان العالم الثالث، إذ تصدّر الولايات المتحدة وحدها من هذه المواد ٥٠ بالمئة (حصلنا على هذه الأرقام من دراسة استغرقت أربع سنوات، قامت بها المؤسسة الدولية للبحث عن السلام، باستوكهولم).

فمتى سيعوّض هذا التصدير المُحْرِق المدمّر الأرزّ، والقمح والشعير والمواشي؟

هل ستستطيع هذه السلع الجهنمية التي تقتل الإنسان وتحطم الجسور والدور أن تخلق ظروفاً للنمو والسلام؟

إن تصدير الأسلحة يخضع، على الأقل، لأربعة دوافع محددة:

- الاستجابة إلى تخطيط استراتيجي (ضمان تأثير دولي من أجل الحفاظ على الاحتكارات الاقتصادية أو مضايقة اقتصادات المزاحمين).

- صيانة مستوى الانتاج العسكري الوطني (الحفاظ على الأسواق وتعزيز التسرّب العسكري إلى البلدان المقتنية الأسلحة).

- تنمية تجارة الأسلحة (لأنها مزدهرة في استراتيجية الامبريالية الجديدة العالمية).

- تشغيل المعامل التي لم يستطع بعد تحويلها إلى اقتصاد السلم، منذ الحرب العالمية الأخيرة.

كل هذه الدوافع ترتبط بقاسم مشترك: اهتمام اقتصادي من منظور المزاحمات.

إن نظام المزاحمة يخرب كل الممارسات، ويجبر القيم الروحية على أن تدع مكانها للقيم المالية.

المزاحمة! ذاك هو العدو[١٥].

تنص آخر الإحصائيات على أن عملية تصدير الأسلحة بفرنسا تنمو، منذ ١٩٦٠، بمعدل ١٦ بالمئة سنوياً. كما تثبت أن «قيمة» مختلف ما تصدّره الولايات المتحدة إلى العالم الثالث من الأسلحة تبلغ ١,٥ مليار دولار (أي ضعف المعدل المتوسط للانتاج الخام في بلدان العالم الثالث).

تلك أرقام تشهد على أخلاقية «المحسنين».

هذه الوضعية المتفرقعة اللاإنسانية تجعل جميع المبادىء الكبرى في خطر. تساءل البابا بولس السادس في خطاب بمناسبة رأس السنة الميلادية، ١٩٧٠، فقال:

«من ينصت إلينا؟ من يفهمنا؟

فهل يبقى للمسيحية خطاب متكيّف مع العالم المعاصر؟»

يمكننا أن نتساءل بدورنا:

وغداً، هل سيكون للمسيحية خطاب قابل للتكيف مع العالم إذا لم تتعاون جميع قوات الخير والإرادات الحسنة على تغييره؟

لو أبحنا لأنفسنا أن نتحدث عن النمو لقلنا إننا جميعاً، أي مختلف أثلاث العالم، في كيس واحد، وفي القطار نفسه الذي يتجه نحو تعطله، ولا أحد يدري في أية محطة سيقف، وما يحدث هو أنه، في داخل العربة المشتركة يسير الغربيون والثالثيون، معاً، ولكن في اتجاهين معاكسين. إن المشهد الذي يمر أمام المسافرين على الرصيفين المتوازيين يجذب بقوّته السحرية المتخلفين الذين تعودوا على ملازمة بيوتهم، ويصيب بالدوار الغربيين الذين فوجئوا

---

(١٥) يجب التفرقة بين المزاحمة والمنافسة. انظر: محمد عزيز الحبابي، **من الحريات إلى التحرر** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٢).

بالفخاخ المنصوبة في القدر المشترك بين الجميع. فلا تستطيع أية أمة (أو مجموعة من الأمم) أن تتوصل إلى التحكم في التاريخ الذي أصبح يتوفّر على تقرير مصيره كاملاً.

هل هذا انتقام للتاريخ من قوى اليوم التي تنغمس في دوامة المزاحمات، محرِّمة على الانسانية أن تحيا في عالم يسوده السلم، أو على الأقل، ينعم بهدنة؟

* * *

يبدو أن عدداً كبيراً من الغربيين (سياسيين وعسكرين ورجال أعمال) لم يريدوا تفهُّم الأوضاع جيداً. فريمون كارتييه (Raymond Cartier) المعبر عن مجلة باري ماتش (Paris-Match) ليس صوتاً شاذاً في جوقة العنصريين الذين يزرعون الحقد بين الشعوب.. ففي كل مكان بالغرب يوجد أمثال كارتييه. وليس غريباً أن تصدر كتب ومجلات متخصصة في التصنيع بالعالم الثالث عن منظّرين غربيين. وليس غريباً، كذلك، أن نجد أنهم قلما يذكرون متطلبات هذا التصنيع، ونادراً ما يفضحون العوائق الحق التي تقف دونه. صرح موراي بروس (Murray Bruce) في كتاب له حول «النمو الصناعي» وهو «دليل من أجل تصنيع بلدان القارات الثلاث» بقوله:

«إنه كتيب عملي حول كيفية تهيء وتقييم المشاريع الصناعية».

يبدو واضحاً أن الأمر لا يتعلق مطلقاً بـ «تعاون» مع الثالثيين لتكوين أطر منهم، ولكن بـ «تهيء» مشاريع في بلدانهم بغض النظر عن إرادتهم. وفي الواقع، كما يؤكد المؤلف، في الكتاب نفسه وفي كتاب آخر صدر بعده[١٦]، «إنه ليس كتاباً نظرياً»، ذلك أن النظرية ليست قابلة للنقل إلى بلدان العالم الثالث. فإذا كانت هذه البلدان في حاجة إلى منظّرين ومهندسين فلتستقدمهم من البلدان الصناعية المتقدمة.

فمرحباً بكم أيها الخبراء الأعزاء وأهلاً وسهلاً!..

منذ مقدمة الكتاب يخبرنا المؤلف أنه يحاول: «أن يصف جل المناهج الكلاسيكية التي بدت صالحة للتعجيل بالنمو الصناعي»[١٧].

أليس غريباً أن تنصح «البلدان السائرة في طريق النمو» باتباع «المناهج التقليدية» التي تخلى عنها الغرب منذ أمد طويل لأنها أضحت ناقصة، إن لم تكن غير مجدية؟

في الوقت الذي كان يجهد فيه الرئيس نيكسون نفسه للحفاظ على المواد المستوردة من اليابان ومن أوروبا بل وحتى من كندا صرح موراي بروس بأنه يشعر بارتياح كبير إزاء

---

(١٦) Murray D. Bruce, *Développement industriel, politiques et méthodes,* traduit du Français par Guy Chartier (Paris: Ed. France -Empire, 1970).

(١٧) المصدر نفسه، ص ٣.

«المحاولة التي قام بها لأن يحرز على بعض الإجراءات الشعبية مثل الحماية الاقتصادية للسلع الداخلية ضماناً للنمو الصناعي السليم»[18].

يفترض التصنيع، مسبقاً، توفّر استثمارات تقتضي بدورها توفّر رؤوس أموال.

فأين توجد تلك الأموال؟

يجيب المؤلف بأنه:

«. . . يمكن الحصول عليها [. . .] من عشرات المصارف (أو البنوك) الحرة، وأيضاً من بعض المؤسسات الصناعية التي ترغب في أن تستثمر أموالها في الخارج [. . .] ولحسن الحظ، إن وجود رؤوس أموال [أجنبية في البلدان المتخلفة] يسمح بحسم مشكلة الخَصاص (الخلل) في توافر الخبرات، ذلك أن الاستثمارات الحُرة الأجنبية تضمن الكفاءات وتقدمها في الوقت نفسه مع رؤوس الأموال، بينما يلجأ التمويل بالطرق الأخرى إلى شركات خاصة، كيما يحصل على المساعدة التقنية والإدارية الضرورية. فأصحاب رؤوس الأموال، عموماً، يشترطون في تمويل مشروع ما احتكار المساعدة التقنية والإدارية. . .»[19].

بما أن السيد موراي بروس «كان خبيراً ومستشاراً في النمو الصناعي» في العديد من البلدان (كوبا والبيرو والأرجنتين والهند والشيلي) يمكننا أن نطرح التساؤل التالي:

كيف تجلت نتائج نظرياته في التطبيق العملي؟

لقد نهجت كوبا منهجاً مخالفاً لتلك النظريات. واضطرت الشيلي، تحت إدارة حكومة الرئيس ألاندي، أن تؤمم المناجم وأن تستغني عن رؤوس الأموال الأجنبية وعن الخبراء الأجانب. ورغم ما سببته لها هذه السياسة من ضغوط وتهديدات، فإنها استطاعت على الأقل، أن تحرر الميزانية الوطنية من دين ساحق كان في تزايد مع مرور الأعوام (٣٠٠ مليون دولار فائدة سنوياً!). . . كما أنه ليس من الخفي انخفاض مستوى الحياة والنمو الصناعي في البلدان الأخرى التي أسدى إليها موراي بروس نصائحه النظرية وتجربته.

بالرغم من مثل هذه النتائج، يوجد من بين رجال الأعمال الغربيين ومن بين المنظّرين لليبرالية من يبدون رضاهم:

«إننا نعيش أياماً غريبة مع نظام اقتصادي يفلت من كل نقد لما حققه من نجاح مادي. ولن يغيّر من الوضع شيئاً، ما اعتدنا على أخذه بعين الاعتبار، لتلك العادة في المحافظة على الفكر المجتمعي الأمريكي، وما ذلك إلا لأن الاتفاق قد وقع بإجماع على مزايا الرأسمالية الأمريكية ونجاحها. إضافة إلى ذلك، يلاحَظ أنه لا يوجد أي اقتراح منطقي بديل للنظام الحالي»[20].

---

(١٨) المصدر نفسه، ص ٨.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٥ - ١٦. وإن صفحات الكتاب كلها وهي ٥٥٠ صفحة تعالج الموضوع نفسه وبالكيفية نفسها.

(٢٠) John Kenneth Galbraith, *Le Capitalisme américain: Le Concept du pouvoir compensateur,* traduit de l'Américain par M. Th. Génier (Paris: Librairie Médicis, [s.a.]), p.20.